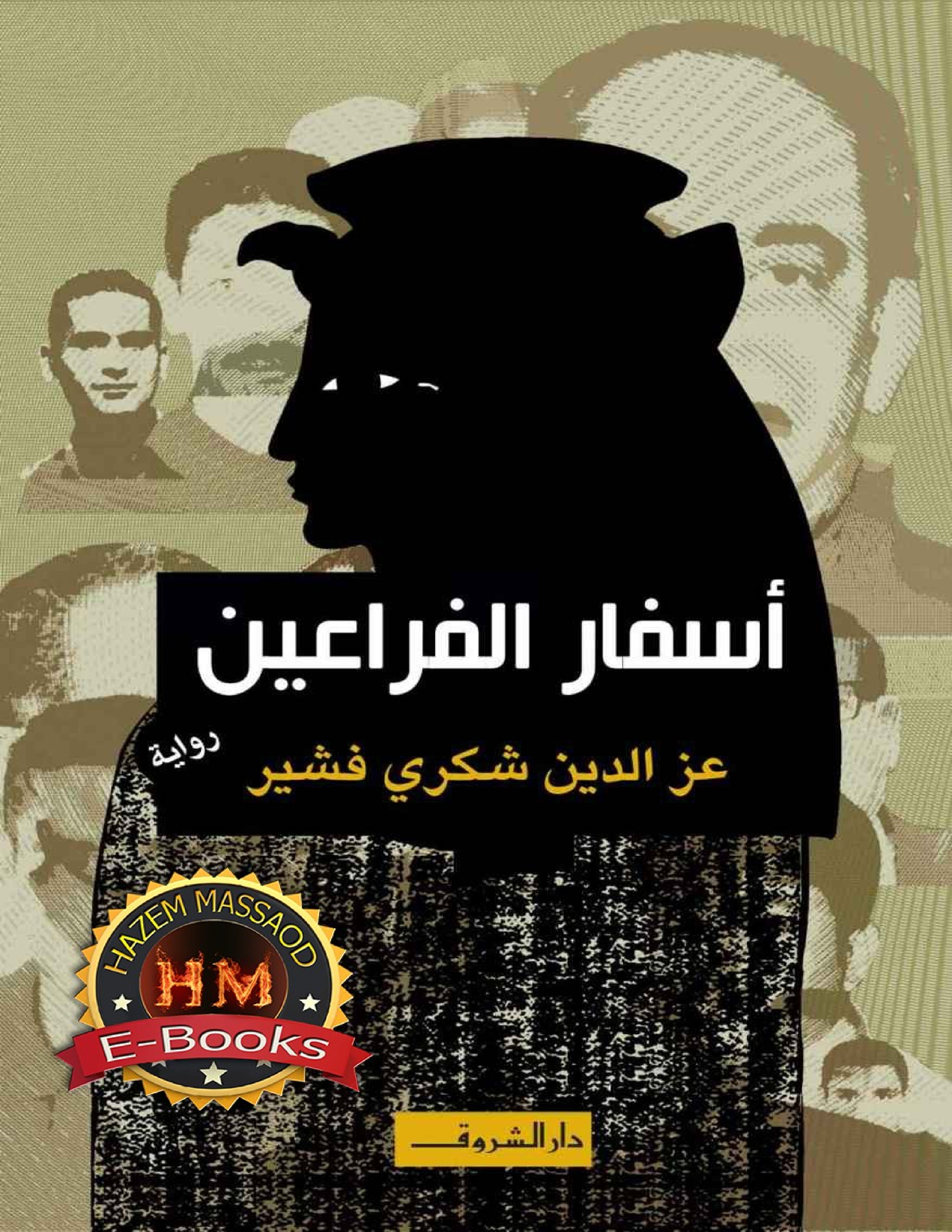


أسفار الفراعين
رواية
عز الدين شكري فشير
HAZEM MASSAOD
HM
E-Books
دار الشروق

عز الدين فشير

أسفار الفراعين

رواية

دار الشروق

أسفار الفراعين

عز الدين فشير

الطبعة الأولي 2012

رقم الإيداع 2012/3960
ISBN 978-977-09-3122-6
8 شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: 24023399
فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)+
www.shorouk.com

«كل البلاد مرايا
وكل المرايا حجر
فلماذا نحاول هذا السفر؟».
محمود درويش

إلى متى يستمر هذا العذاب؟ كان صوت عبد الوهاب يأتي مغلوشًا من تسجيل السيارة المتهالك. سائق التاكسي لا يبدو عليه أيّ ردّ فعل لهذا الزحام وهذا الحر الخانق. يا أسوأ ميادين أرض الله يا ميدان الجيزة، لعنة الله عليك وعلى أيام المرور فيك التي لا تنتهي ولا تريد أن تنتهي. تحركت السيارة التي أمامنا فاهتزَّ التاكسي وتحرك قليلًا خلفها ثم توقف ثانيةً. كنت أرى الإشارة أمامنا خضراء ولكن كل السيارات كانت واقفة وكنا نحن أيضًا واقفين. سيارات نقل تمر أمامي من بعيد. صوت السيارات المارقة على كوبري الجيزة يُحدِث طنينًا يزيد من طنين محرِّك السيارة المنهار. نظر إليّ السائق ثم نظر أمامه مرة أخرى. تُرَى فيمَ يفكر؟ نظرت إليه بإمعان وحاولت تبيُّن ملامحه فلم أستطع. كان قناع الغاز يخفي كل وجهه عدا عينيه. نوع قديم من الأقنعة، ربما من أول أو ثاني جيل من إنتاج الشركة. نظرت إلى عينيه ولكنه كان ينظر إلى الأمام فلم أتبين أي شيء. كانت البدلة البنية التي أرتديها تزيد من إحساسي بالحرارة. أأخلعها؟ ولكنني لو خلعتها سيتسخ القميص ولا يزال أمامي المشوار طويلًا والناس الذين سأقابلهم ناسٌ مهمُّون. ربطة العنق ستخنقني قريبًا. كم مرة قلت لزوجتي أن تنقل زرار ياقة القميص لتوسعه قليلًا. ولكن منذ متى كانت زوجتي تهتمُّ بقمصاني؟! أزحت طرف البدلة قليلًا ونظرت إلى القميص: الكُسَر الصغيرة الرفيعة التي تملؤه تفضح فشلي في المكواة، أو لعلها هي التي كوت هذا القميص؟ لا أتذكر. لماذا لا تتحرك هذه السيارات؟ صوت عبد الوهاب ما زال يأتي من التسجيل: كيف يشكو من الظمأ من له هذه العيون؟ أنا ظمآن يا سيدي. نظرت في ساعتي: لا، لم يحن موعد الشرب بعد، باقٍ نصف ساعة. تحسست بيدي الحقيبة السوداء السمسونايت: محصِّلة سبع سنوات من البحث تقبع هنا في هذه الحقيبة التي تشبه مليون حقيبة أخرى. سبع سنوات من البحث والسهر كل ليلة سواء في البيت أو في الإدارة. هنا في هذه الحقيبة، وهناك على كمبيوتر الإدارة نسخة أخرى، ونسختان على شرائط ممغنَطة بالبيت. كل الرسومات والتحاليل والنماذج. كل شيء: كل الاختبارات المعملية والميدانية، كل الاستقصاءات والدراسات الخاصة بالموضوع، وأهمّ من كل ذلك: الحلول التي توصلنا إليها والبدائل التي وضعناها والخطوات التنفيذية بالتوقيتات والإجراءات التعويضية المصاحِبة. كل شيء. سبع سنوات، منذ التحقت بإدارة البحوث بالشركة وأنا لا أفعل سوى مواصلة البحث في هذا الموضوع. أخيرًا تحركَت السيارات.

* * *

اقترب عبد العال من محطة القطار. شكلها متغير المحطة اليوم، أو لعلّي أنا الذي نسيت شكلها. سنة كاملة لم آتِ فيها إلى حلوان ولم أركب هذا القطار. أين أيامك القديمة يا حلوان وأيام المحاجر والضرب في الحجارة بالديناميت؟ اقترب عبد العال من محطة القطار فتأكد من أن المحطة قد تغيرت. الباب مغلَق وهناك إشارات غريبة ولوحات مكتوبة بخط غريب وبلغات أخرى تشير إلى مداخل أخرى لا يعرفها. توقف أمام الباب القديم المغلَق ووضع «خلجاته» على الأرض أمامه ونظر حوله في استغراب. جاء صوت نفير القطار عاليًا ثم صوت تحرُّكه متسارعًا. لاح القطار من خلف القضبان والنوافذ. الحمد لله، هو هو نفس القطار. إذن لم أخطئ، هذه هي المحطة وهذا هو القطار، ولكن كيف الدخول؟ اقترب منه عسكري صعيدي السمرة قصير القامة ضئيل بجوار عبد العال الفارع:

ـ بتدوّر على حاجه يا بلدينا؟

ـ فين المحطة ياعمّ؟

أشار العسكري بيده إلى سُلَّم جانبيّ صغير وشُبَّاك يقف أمامه طابور قصير. مد عبد العال يده وتناول «خلجاته» وهو يرفع يده اليسرى شاكرًا العسكريَّ الذي انصرف دون أن يلتفت لتحيته. تقدَّم إلى الشباك ووقف في الطابور حتى وصل إلى الموظف. مدّ يده بقروشه النحاسية:

ـ باب الحديد.

نظر الموظف إلى القروش في يده وقال بابتسامة الموظفين الساخرة:

ـ خمسين قرش يا بلدينا.

ـ كام؟ بتقول كام؟

ـ خمسين قرش يا بلدينا، يلّا يا سيدي الناس مستعجلة.

ـ كيف خمسين قرش يا أستاذ؟ من هنا لباب الحديد خمسين قرش؟

زفر الموظف في ضجر ولم يردّ. مد يده إلى الذي يليه في الطابور وأخذ منه النقود وأعطاه التذكرة في حركة آلية وهو ينظر إلى عبد العال:

ـ خلّصنا يا سيدي.

نظر إليه عبد العال في شكّ وغمغم بكلمات غير مفهومة ثم انسحب من الطابور. وقف أسفل السلَّم الضيّق وهو ممسك بخلجاته. كان الركاب لا ينقطعون عن المرور من أمامه في اتجاه الشبَّاك يُخرِجون النقود على السلَّم ويعودون سريعًا بالتذاكر ثم يدلفون من باب آخَر إلى المحطة. سمع عبد العال صوت قطار ثانٍ يتحرك ثم ثالث ثم رابع، ثم توقف عن العدّ. عاد العسكري إليه متباطئًا:

ـ منتظر حاجة يا بلدينا؟

نظر إليه عبد العال بشيء من الخوف ثم سأله في تردد:

ـ هيّ التذكرة من هنا لباب الحديد بكام يا شاويش؟

ـ بخمسين قرش يا بِلد.

ـ يا بوي! بخمسين قرش! دي كانت بشلن.

ضحك العسكري ضحكة العساكر المجنَّدين عنوة لثلاث سنوات وقال:

ـ ده كان زمان يا بِلد. انت بقى لك زمان ما جيتش هنا؟

ـ آه والله بقى لي زمان. يطلع سنة.

نظر إليه العسكري في شكّ:
ـ سنة! بس من سنة التذكرة ماكانتش بشلن يا بلدينا!
رد عبد العال وهو ينظر إلى خلجاته:
ـ جايز أزيد من سنة شوية يا شاويش. من أيام الحرب كده.
قطّب العسكري حاجبيه:
ـ حرب إيه ياجدع انتَ؟ الحرب فات عليها ولا عشرين سنة.
ـ عشرين سنة كِيف يا شاويش؟! الحرب، الحرب الأخرانية دي. ما انا كنت باشتغل في المحاجر في حلوان لغاية الحرب ما قامت وبعدين سافرت عندينا لأن اخواتي الاتنين راحوا الجهاديّة ومابقاش غيري أرعى الأرض والنسوان والعيال. بس خلصت الحرب وأخُوي رجع قمت أنا نزلت على هنا مع واحد سوَّاق من عندينا. بس مالاقيتش المحجر اللي كنت باشتغل فيه، قلت لنفسي تلاقيه انضرب. قعدت يومين ادوّر على محاجر ولّا أي شغل مالاقيتش غير في بتوع الأسمنت، وانا مافهمش في الأسمنت، قلت أرجع البلد واهو أرعى أرض وعيال أخوي اللي مارجعش لغاية ما يرجع.
كان العسكري يحدق إليه محاولًا التيقُّن ممَّا إذا كان مجنونًا أم كذَّابًا. ظل يحدق إليه لحظات ثم قرَّر أنه لن يستطيع التيقُّن:
ـ إنت معاك فلوس تروَّح؟
ـ أنا كل اللي معاي خمسين قرش. أركب كيف بخمسين قرش من هنا إذا كانت تذكرة القطر من باب الحديد بخمسة وأربعين قرش؟
الآن تبين الحقّ من الغيّ. المسألة أنه ليس معه نقود ومن ثَمَّ يخترع هذه القصص. نظر إليه العسكري ثانية، ولكنه غلبان، تلاقيه مجند مثلي وربما ألعن، ثم إنه صعيدي ولا يستطيع الخلاص مع الملاعين بتوع مصر:
ـ اسمع يا بلدينا، أنا ح ادخَّلك تركب القطر ببلاش، بس إوعى تقول لحد إني انا اللي دخلتك، انت فاهم؟
ـ وحأقول إيه للكمساري يا بوي؟
ـ مفيش كمساري في القطورات دي يا بلدينا. يلّا يلّا بلاش كُتر كلام.

* * *

الغيوم تملأ السماء في باريس. الساعة الآن الخامسة عصرًا والظلام يوشك أن يحلّ في هذا اليوم الشتائيّ. رجال الحرس يمرون بأناقتهم البيضاء المحمرَّة في أرجاء اللوفر يحثُّون الزوّار المتأخرين سهوًا أو عمدًا على ولوج ممرّات الخروج. القطع الأثرية الصغيرة نائمة في صناديقها الزجاجية في جناح المصريات. صفحات كثيرة من كتاب الموتى تمتدّ في صندوق زجاجيّ طويل بطول الممر. الإضاءة التي خفتت في تمام الخامسة تزيد من سحرها ومن حقيقيتها ومن أسطوريّة وجودها في هذه العاصمة الفرنسية تمامًا. الكاتب المصري يتململ في مكانه في ضجر قديم دون أن يلحظه رجال الحرس المتضجرون من سخافة الزوّار وإصرارهم غير المفهوم على المماطلة في الخروج. تحتدّ لهجتهم في الحديث دون أن يخرجوا عن النصّ المهذب في أمر السادة الزوّار بالخروج فورًا. تنسحب آخر فلول المماطلين أمام إصرار الحرس العتيد على إخلاء القاعة. يتأكد من خلوها تمامًا ثم يسحب خلفه الباب الحديدي الضخم، يمضي الحرس إلى بقيّة غرف الجناح لإعادة نفس السيناريو. القاعة الآن خالية تمامًا إلّا من أصحابها المقيمين. حرك الكاتب عينيه في إرهاق. حرك رقبته يمينًا ويسارا، كل التماثيل من حوله تماثيل وكل البرديات برديات والتحف ساكنة في الفاترينات. حرّك ذراعيه فسمع صوت قرقعة في عظامه وتفتت. نظر إلى السماء الداكنة:

ـ ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟

* * *

الواحدة صباحًا. ناصر يجلس في صالة التحرير وحيدًا. وردية الليل صفصفت عليه بعد أن اعتذر الزميلان الآخران، هذه هي وردية الليل: ثلاثة محررين يعتذر منهم اثنان، الفكرة كلها فيمن يلحق ويعتذر قبل الآخر، ولأنه كان نائمًا حتى الثالثة ظهرًا فلم يستطع أن يلحق سباق الاعتذارات. الواحدة صباحًا وناصر يجلس وحيدًا في صالة التحرير بوكالة الأنباء التي لا أنباء فيها منذ انقطاع المياه. السقف عالٍ، كان لونه رماديًّا في الأصل ثم فقده مع مرور الأيام. الصالة واسعة.. واسعة جدًّا. كم هذه؟ خمسون مترًا في عشرين، أو ربما في خمسة وعشرين. ماذا كانوا يظنون أنهم سيفعلون بكل هذه المساحة؟ نظر ناصر إلى قناعه المُلقَى بجواره. منذ ركّبت الإدارة مرشّحَات الهواء على النوافذ الخارجية والأبواب مُنع ارتداء أقنعة الغاز داخل الوكالة، ولكن هل أستطيع الثقة في كفاءة هذه المرشّحات؟ ومن أدراني كيف صُنعت وكيف رُكِّبت؟ ولو كان هناك تسرب؟ نظر إلى قناعه ثم نظر إلى الصالة الفارغة من حوله. مدّ يده إلى القناع ووضعه على وجهه. أحكم إغلاق أربطته، نظر من خلف القناع إلى الصالة. الآلات الكاتبة المتراصّة على المكاتب الفارغة. سلات المهملات الفارغة. الممرات المزدحمة بسيدات الوردية الصباحية ونميمتهن التي لا تنضب، فارغة الآن تمامًا. قام يمشي إلى دورة المياه. دفع باب دورة مياه السيدات ودخل. أنظف من دورة المياه بتاعتنا. تفتكر هذا هو السبب في دخولي هنا أم أن هناك سببًا آخَر؟ مثل ماذا؟ مثل رغبة دفينة في الاتصال بامرأة الآن، أي امرأة في هذه الصالة الفارغة من كل شيء. لمح وجهه في المرآة بقناع الغاز فانفجر ضاحكًا، فكّ أربطة القناع وهو يواصل الضحك. كانت كتفاه العريضتان تهتزّان بشدّة من الضحك. خلع القناع ووقف ينظر إلى وجهه في المرآة. منذ متى لم أحلق ذقني؟ منذ أربعة أيام؟ لا، منذ خمسة. ما الفارق؟ وماذا لو لم أحلقها على الإطلاق، على الإطلاق، وتركتها تنمو وتطول حتى أجرجرها أمامي وألفّها في ضفائر مثل الهنود السيخ؟ سمع ناصر صوت تكتكة يأتي من الصالة فانتبهت حواسُّه. معقول؟ خبر؟ أصاخ السمع: لا صوت. خرج من دورة مياه السيدات ودلف إلى دورة مياه الرجال. وقف أمام المبولة، كانت بيضاء في الأصل ثم استسلمت لقذَرها الأصفر. فك أزرار بنطلونه. لماذا يُصِرُّ والدي وخيَّاطه اللعين على الأزرار بدلًا من السوست؟ ولماذا أترك أبي يخيط لي بناطيلي؟ كسل، أو استسهال، أو الاثنان معًا. كان البول يأتي سريعًا ومتدفقًا ويشعره براحة هادئة تتسلل إلى خصره بالكامل. أغلق أزرار البنطلون وانسحب إلى الحوض. فتح الحنفية في تلقائية فلمَّا لم تجئ المياه تذكر وابتسم هازئًا. كم من الزمن أحتاج قبل أن أوقن أن المياه قد ذهبت إلى الأبد؟ مسح يديه في المناديل الورق المكدسة في جيبه ثم فتح الباب. جاء صوت التكتكة عاليًا هذه المرة. التفت نحو ماكينة التيكرز في آخر الصالة، لا شيء هناك. اتجه ناصر عائدًا إلى مكتبه، وضع القناع على كرسيِّه. سمع صوت التكتكة آتيًا من رزم الأوراق المكوَّمة على الأرض بجواره، نظر إليها بسرعة. خشخشت ثم انطلقت من وسطها عِرْسة بُنّيّة أخذت تجري بعرض الصالة.

* * *

ابتسمت السفيرة الأمريكية ابتسامة واسعة. وضعت التقرير أمامها على المكتب البيضاويّ وواصلت الابتسام. التفتت إلى اليمين ومالت على الديكتافون وضغطت على زر التحدث:

ـ ديفيد! هل أستطيع أن أرى كل شيء الآن؟

ـ بالتأكيد يا سيدتي. كل شيء جاهز وتم التأكّد منه.

ـ عندما أقول كل شيء فإني أعني كل شيء.

ـ بالتأكيد يا سيدتي.

ـ حسنا، سآتي في خلال سبع دقائق. اطلب من «مارك» أن يكون جاهزًا لمرافقتي، وربما الكولونيل «لودج» يهمّه أن يرى معي التجهيزات. ربما لديه شيء ليقوله لي بخصوص تعليمات الأمن الخاصة بها.

ـ بالتأكيد يا سيدتي.

ـ بالمناسبة، أليس لديك ردّ آخَر غير «بالتأكيد يا سيدتي»؟

ـ بالتأكيد... لدَيّ، طبعًا.

ـ حسنًا يا ديفيد، في خلال سبع دقائق إذن.

رفعت السفيرة يدها عن الزرّ وعادت إلى جلستها. فتحت التقرير ونظرت فيه مرة أخرى. إذن هذا ما يقترحونه في واشنطن! هؤلاء الموظفون المتأنقون في حللهم الإيطالية والذين لم تطأ أقدامهم أرض مصر أو أي بلد عربي آخَر! ماذا يعرفون هم عمَّا يحدث هنا؟ لا شيء سوى التقارير التي ترسلها السفارة ومكاتبها. لا يعرفون شيئًا على الإطلاق سوى الأوراق. هل مشوا هم في هذا العفن السائل؟ هل ارتدوا الأقنعة ليتمكنوا من السير في الشوارع والوصول إلى أيّ مبنى حكومي أو مقابلة أي مسئول؟ هل زاروا مستشفى واحدًا واضطروا إلى المرور بين أسرّة الموبوئين واصطناع التعاطف أمام كاميرات التلفزيون؟ ماذا يعرفون هم سوى الأوراق والأوامر؟ هزَّت رأسها وابتسمت. خلعت النظارة ووضعتها على التقرير وعادت بظهرها إلى الوراء في الكرسي الفسيح. استدارت نصف دائرة لتواجه نافذتها الكبيرة. كان ضوء الشمس يبدو واضحًا رغم التجهيزات الجديدة ورغم مرشِّحات الضوء والهواء ورغم الستائر. يا إلهي! خسارة هذه الشمس الجميلة. منذ أربع سنوات وأنا لا أستطيع الخروج في الشمس. نظرت إلى بشرة ساقها البيضاء وهزت رأسها في أسًى: أين شمسك يا نيوأورليانز! إذن هذا الهراء هو ما يريدونه في واشنطن! عادت بكرسيِّها إلى المكتب ومدَّت يدها أسفل الدرج الأيمن وأخرجت لوحة مفاتيح الكتابة الخاصة بجهاز الكمبيوتر. أدارت مفتاح التشغيل فظهرت عدة رسائل خاصة بالتشغيل ثم رسالة تطلب كلمة السر. نظرت حولها ثم كتبتها على الأزرار. الحروف لا تظهر على الشاشة. غامت الشاشة قليلًا ثم انفتح الجهاز. اختارت شبكة الاتصالات بالشفرة، وكتبت:

«سري للغاية

من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في القاهرة

إلى وزارة الخارجية ـ واشنطن

بالإشارة إلى مُكاتبتكم السرية بشأن إعلان مصر لمنطقة سقَّارة منطقة كوارث طبيعية:

ـ تناهى إلى علمنا أن البحوث التي أُجرِيَت أخيرًا حول انتشار أمراض سرطان الجلد والرئة بين سكان منطقة سقّارة بشكل وبائيّ منذ إبريل الماضي تشير إلى ارتفاع نسبة الأشعّة تحت الحمراء في المنطقة المحيطة بهرم سقّارة بقطر ثلاثين كيلومترًا بدرجة تفوق المعدَّلات الدولية المسموح

بها بشكل غير مسبوق، وقد قام كل من وزارة الصحة هنا، والفريق الطبي الذي استقدمته السفارة من معهد كليفلاند للبحوث البيئية، بإجراء مسح شامل للمنطقة أكّد هذه النتائج، وقد أخطرَت وزارة الداخلية جميع السفارات الأجنبية بالتنبيه على رعاياها بتجنُّب هذه المنطقة، إلّا أنه لم يعلن أي شيء بشكل رسمي.

ـ في حديث مع الدكتور بدير البنهاوي مدير الشركة المنوط بها مكافحة التلوث، في أثناء حفل استقبال أجريته بالسفارة بمناسبة الإعلان عن بدء الجولة الجديدة من المفاوضات الدولية لمنكوبي الكوارث الطبيعية، أخبرني أن مصر ستطلب إعلان منطقة سقّارة منطقة منكوبة عالَميًّا، وستطلب من برنامج الأمم المتحدة للبيئة اتخاذ الخطوات اللازمة لدراسة المنطقة بشكل شامل ومعرفة مدى مسئولية خفَّة طبقة الأوزون عن التطورات الأخيرة.

ـ ترى السفارة إيفاد فريق متخصص لدراسة الموقف لأهميته العلمية بالنسبة إلى فهم حركة طبقة الأوزون واحتمالات تأثير ذلك على المناخ أو امتدادها إلى الأراضي الأمريكية، وكذلك للتوصية بإجراءات الحماية الواجب اتخاذها لحماية العاملين بالسفارة ومكاتبها وفريق المعونة وكذلك الرعايا الأمريكيين بمصر.

ـ قامت السفارة بإتمام حفر النفق الواصل بين مبنى السفارة ومساكن العاملين بالمعادي، ويبلغ طوله ٢٥ كيلومترًا، منها خمسة كيلومترات مشتركة مع مترو الأنفاق بالقاهرة وذلك وفقًا للاتفاق الموقَّع بين السفارة وهيئة المترو والذي يضمن للعاملين بالسفارة أولوية استخدام النفق في حالات الضرورة مقابل قيام السفارة بتجهيز جسم النفق بالكامل ضدّ التلوث والتسرب (صورة الاتفاق تصلكم في الحقيبة).

ـ تعليماتكم.

السفيرة

رنّ الديكتافون بجوارها ثم جاء صوت ديفيد:

ـ سيدتي، مارك والكولونيل لودج هنا في انتظارك.

تنهدت السفيرة وقالت وهي تنظر للجهاز:

ـ سأكون هناك حالًا.

* * *

يجلس بلا حراك في الطائرة النائمة على أرض المطار. بيضاء، ناعمة، وضخمة. سوف تحملك، لا داعي للقلق، سوف تحملك إلى أرض أخرى وإلى سماء أخرى وإلى زمن آخَر. يجلس في الطائرة بلا حراك. يفك رباط العنق قليلًا ويفتح زرار ياقة القميص. بعض من الراحة في هذا المكان بعد الوداعات الرسمية والعائلية ومندوب الرئاسة يخلِّص الأوراق ويحمل الحقيبة عنه. يجلس في الدرجة الأولى ويحدق من النافذة الجانبية بلا اهتمام. تتجمد ملامحه شيئًا فشيئًا، يضع قدمه على الدرجة الأولى من السلّم ويصعد. الهواء في مطار القاهرة ما زال يلفح الصاعدين إلى الطائرات رغم ثقله ورغم العفن الذي يقطر منه. يضع قدمه على السلّم ويصعد. الهابطون ينتحون جانبًا ويرفع السعاة أيديهم بالتحية الذليلة ويقومون في ارتباك يوميّ عن كراسيِّهم الخيزران. ينفتح باب المكتب أمام خطوته ويدخل فتقوم السكرتيرة في ابتسامتها الممكيَجة حالًا. ينفتح الباب الداخلي إلى مكتبه ويضع السائق الحقيبة السامسونايت على المكتب وينصرف منحنيًا برأسه.

يرفع رأسه إلى باب الطائرة في أعلى السلّم فتبتسم له المضيفة في كابها الجوِّي الأزرق جدًّا. يصعد درجة أخرى على السلّم ويمسك بالجدار المعدني البارد ليستند إليه في مقاومته للهواء. بارد هذا الجدار المعدني. يلهث قليلًا ويتوقف، يلتفت إلى مبنى المطار. لا، لا أريد أن أرى أحدًا. بعد الحقائب والحلل الرسمية الغامقة المنتشرة حوله في صالة كبار الزوّار والوداعات يصعد السلّم. سيرحل الآن، لا داعي للقلق. توقفت السيارة البيجو البيضاء التي تحمل طقم الحراسة فتوقفت سيارته. نزلوا فنزل. دخلوا فدخل. ذهبوا فليذهب هو الآن. وكفى.

عاد مندوب الإدارة ولا شك إلى نومته في مكتب الوزارة بالمطار، وعاد طقم الحراسة للإجازة، ولا بد أن مندوب الرئاسة قد عاد لينام ليصحو ليلًا ليشيّع جنازة ما، ولا بد أن أعضاء الوفد كافةً ينامون الآن في الميريديان في بورت مايوه بباريس. سأرحل الآن وسأذهب بعيدًا جدًّا.

كم عامًا؟ عشرون عامًا؟ وقبلها عشرون أخرى من تسلُّق الجبل. خطوة خطوة. واغرز رجلك جيدًا قبل أن تخطو خطوة أخرى وإلّا وقعت ودُقّ عنقك. خطوة وتثبّت أقدامك ثم خطوة، ثم تنظر من حولك ومن فوقك ومن تحتك ومن خلال. أينما كنتم يدرككم الموت. ثم خطوة أخرى. عشرون عامًا من التسلق وروحك تحملها على كتفك. ثم تصل، يبتسم لك يومًا في افتتاح معرض ويشد يومًا آخر على يدك بحرارة في استقبال، ثم يحدّثك دقيقتين في أثناء زيارته للشركة. ثم تنفتح لك أبواب لم تكن تجرؤ أن تطرق بابها، ويبتسم لك الناس أكثر قليلًا، ويدعوك الناس لافتتاحات ومعارض ومواسم أكثر قليلًا، ثم يزورك مندوبو الصحف أكثر قليلًا. ثم تدخل مبنى التلفزيون الأسطوري الملغز وتعرق في اجتهادك أن تفهم أسئلة المذيعة أو تجيب عنها، ثم تسافر قليلًا إلى الخارج وتتلقى دعوتين من السفارة الأمريكية للمشاركة في ندوات لم تسمع بوجودها من قبل في واشنطن أو غيرها، ثم ترسل إليك السفارة الأمريكية بريدها بانتظام، ثم يقابلك مقرَّب منه ويخبرك أنه راضٍ عنك وأنه يتابع نشاطك. ثم تهجم عليك موجة من سوء الحظ وتظن أنك نُسيت وطُويَت صفحتك وينصرف الناس عنك. ولكن يظلّ بريد السفارة الأمريكية يصلك بانتظام، ثم يقابلك أحد مستشاريه المشهورين لفترة ويتحدث معك ثلاث ساعات، ثم يرنّ التليفون في منزلك ذات مساء ويحدّثك ذات المستشار مقتضبًا طالبًا منك الحضور في التاسعة صباحًا إلى القصر الفرعوني. ثم لا تدري ما يحدث لك بعد ذلك بالضبط ولمدة أسبوع، وعندما تفيق تدرك أنك أصبحت الآن وزيرًا.

ثم عشرون عامًا أُخَر.

* * *

خرج التاكسي مما يُفترض أنه الميدان. سار سريعًا ـ نسبة إلى نصف الساعة التي قضاها للوصول من كوبري عباس إلى سنترال الجيزة ـ ووصل إلى ما سوف يقودنا إلى نفق الهرم. الرحمة يا رب العالمين. في البداية حاولت أن أمشي للتخلص من هذا العذاب اليومي. قلت لنفسي إن المسافة ليست بعيدة. ربما نصف ساعة مشي وأصل إلى مبنى المحافظة، ولكن الذي حدث أني اكتشفت أن المشي أسوأ. لا مكان للمشاة، غير التراب والزحام ومأساة المرور إمّا من النفق (مستحيل) وإمّا من فوق خطوط السكة الحديد عبر حواجز من الحديد لا أدري من وضعها ولأي سبب. مرّ التاكسي في أناقة بجوار سنترال الجيزة. كانت الساعة العاشرة مساءً عندما دخلت السنترال. فارغ بشكل موحش. لا أثاث ولا موظفين. بقايا زبائن كأن الزمن نسيهم هنا ونسوه. من بين المباني الحكومية العديدة، لا يوجد إلّا هذا السنترال الذي يخلو من أي تجهيزات لمواجهة العفن. دخلت وأنا أرتدي قناع الغاز. زلّت قدمي في طبقة سائلة من العفن المختلط بالماء تطفو على أرض السنترال. الكبائن الخشبية مفتوحة الأبواب أو مخلَّعة. سماعات مكان تليفونات الكبائن مدلّاة قرب الأرض ويقطر منها عفن أخضر زاهٍ. نبتت الطحالب بأرض الكبائن وطفحت منها إلى الأرض. نظرت حولي مليًّا ولكني لم أتبين مصدر الماء. كانت كل الدراسات التي أُجريت بالشركة قد توصلت إلى أن الماء هو السبيل الوحيد الممكن لمقاومة العفن أو الحد من آثاره، وكان سنترال الجيزة حالة مثيرة لاهتمامي. في البداية لم يكن أحد قد أدرجه كحالة للدراسة ضمن البحث الموسَّع الذي نقوم به، وقد أدرجته أنا بالصدفة عندما اضطُررت إلى الذهاب هناك عدة مرات لإجراء مكالمات تليفونية متعددة بعد خروجي من مبنى الشركة على الكورنيش، وأصبح بعد ذلك من أهم حالات الدراسة. ها هو الماء مختلطًا بالعفن أو خارجًا منه بما يكذِّب الحكمة السائدة بأن الماء يقاوم العفن. توجهت إلى الشباك الوحيد المفتوح. الموظف قابع بجوار جهاز اتصال قديم والسماعة معلَّقة على كتفه. كتبت الرقم الذي أريد الاتصال به واسم البلد. نظر الرجل إليّ ببعض من الاحترام وقال في بطء:

ـ الدولي عطلان يا بيه.

أُصبت بإحباط. ما العمل الآن وعليّ الاتصال بمدير الإدارة الموجود في باريس ضمن وفد مصر المشارك في مفاوضات منكوبي الكوارث (والتي صارت تعرف في الشركة باسم «المنكوبين» اختصارًا). كنت أعلم أن هذه المباحثات ستستمر على الأقل أسبوعًا وربما تمتد إلى أكثر من ذلك، وكنت أريد أن أخبر المدير أن البحث قد انتهى وأستعلم عن بعض الإجراءات العملية الضرورية الآن، مثل عدد النسخ التي سنطبعها، ومن الذي سيوقّع على التقرير، والجهات التي سيوزع عليها، إلخ. كنت أكاد أجن من الفرحة هذا المساء عندما انتهينا من البحث ولم أكن أستطيع الانتظار إلى الصباح.

ـ مش ممكن تحاول مرة ثانية؟

ـ يا أستاذ باقول لك الدولي عطلان! فيه محافظات لو عايز.

نظرت إلى الرجل من خلف قناعه ولم أفهم. التفتّ خلفي. ثم استدرت في يأس وجررت قدمَيّ نحو باب الخروج. كان الزبائن طالبو المكالمات ينتظرون على صفّين من الكراسي البلاستيكية وقد التصقت أقنعتهم الواقية بعضها ببعض. كانوا نائمين أو شبه نائمين، وبدا أني الوحيد الذي يعكر صفو المكان. خرجت إلى الميدان. سار التاكسي بجوار سنترال الجيزة. مرّ أمام «تبرعوا لبناء مجمع الإيمان بالجيزة». لم يكن الشيخ الخطيب قد بدأ دروس العصر بعد، وكان المكان هادئًا.

الدخان المتصاعد من شوّاية الحاتي لا يغريني إطلاقًا بالأكل. كيف يمكن أن يشوي أحد لحما في الهواء العاري هكذا بكل ما يحمله الهواء من بلاوي؟ وإذا كانت الناس قد اضطُرّت إلى ارتداء أقنعة الحرب الكيمائية لتقي نفسها العفن الضارب في بر مصر كله، فكيف يؤكل هذا اللحم؟ كيف يشكو من الظمأ من له هذه العيون؟ نظرت في الساعة. مددت يدي إلى علبة المياه المعدنية في جيب الجاكت الداخلي. أخرجتها فنظر إليّ السائق مليًّا. أشعر بحدّة نظرته تخترق العلبة، تخترقني أنا. رفعت عينَيَّ إلى عينيه. ها هنا كلانا من خلف أقنعتنا نتبادل عدم الفهم الذي يحتّمه علينا وضعنا. ها هنا كلانا نتبادل الحذر أو الكراهية. نظرت من زجاج التاكسي. فتحت غطاء العلبة ورشفت رشفتين. أغلق الغطاء، أحكم إغلاقه، أعيد العلبة إلى جيبي الداخلي ودون أن أفكر كثيرًا، أغلق أزرار الجاكت. التاكسي يترنح قليلًا بين الوقوف والسير ثم ينفتح الطريق أمامنا أخيرًا. ها هو نفق الهرم. اندفع التاكسي هابطًا النفق بسرعة.

* * *

فتح عينيه قليلًا ثم أغلقهما ثانية. الضوء الذي اندسّ تحت جفنيه حادّ، العطش يشقّق شفتيه. حرّك عضلات وجهه رويدًا، الشقوق في شفتيه حادّة وكأنها تَدمى. مدّ يده فوق عينيه وجاسر بفتحهما ثانية. الشمس تدخل في برج العصاري ومع ذلك فحمية ضوئها لا تقل عن أشد أيام القيظ في البلد. فتح عينيه بالتدريج، رفع رأسه قليلًا فآلمه كتفه وأعلى ظهره. منذ متى وأنا مُلقًى على هذه الأرض الخراب؟ الرمل أصفر كالشمس أو اصفرّ من طول خضوعه لها. الرمل في الأمام وفي الخلف وفي الأفق بلا نهاية. العطش يطيح بفمه وبصدره وببطنه. لا عطش مثل هذا العطش. ولا أشدّ أيام الصيام في رمضان مع الشغل في الحقل منذ الفجر وحتى المغرب. قيظ في السماء وعلى الأرض وفي جوفي. مال برأسه إلى جانبه الأيمن يبحث عن سلاحه. لا شيء سوى الرمل. الأفرول الأخضر الميري ممزَّق عند الركبتين والساعدين وتحت الإبط. مهلهَل في بقيته. تحسّس رأسه بيده، ألم حادّ يأتيه من نصف رأسه الأيسر. الطاقية الميري ذهبت واحتلّ التراب والرمل شعره حتى أكسبه صفرة رمادية. أين ذهب السلاح؟ منذ متى وأنا راقد في هذه الأرض الخراب؟ متى وصلت إلى هنا؟ وكيف؟ أين ذهب البقية؟ كنا أربعين عسكريًّا ليلة أمس. وبعد أن ضُرب الموقع ودُمرت المعدات وخزانات الماء رحلنا باتجاه السويس. أين ذهب الباقون؟ وأين قربة مائي ومِخْلَتي وبقيّة طعامي؟ العطش يضرب في جوانحه عصفًا. استند إلى زنده وقام بنصفه الأعلى جالسًا. كان ظهره كله يؤلمه ولا يكاد يشعر بساقَيه. هل شُللت، أم هو الإعياء من الجوع والعطش؟ نظر حوله. لا شيء سوى الرمل. نظر ثانية كأنما ليمنح الرمل فرصته الأخيرة كي يستحيل نخلًا وماء. لا شيء، ولا حتى سراب يعطيه بعض الأمل. أين أنا؟ وأين الطريق إلى السويس؟ هل يمر من هنا أحد ويأخذني معه؟ هل تأتي حتى قوات العدوّ وتأسرني. لعلّي أحيا؟ لعلي أحيا ثم يبادلونني بأسير آخَر. لا بد وأن قواتنا قد أسرت إسرائيليين في مواقع أخرى ويومًا ما ستنتهي الحرب ويبادلونني بأسير آخر. لماذا فررت إذن عندما ضربوا الموقع؟ كانوا هناك، في طائراتهم، وكنت أكاد أرى رءوسهم، ربما لو كنت ظللت كانوا نزلوا وأخذوني أسيرًا، أسيرًا ولكن حيًّا. هل يبحثون عني الآن؟ هل وصل زملائي إلى السويس واكتشفوا غيابي وأبلغوا القيادة وسيأتي الضباط والعساكر والعربات وربما الطائرات أيضًا ليبحثوا عني؟ يجب أن أظل مستيقظا حتى أشير إليهم عندما يأتون، وإذا لم يصلوا حتى الليل؟ يجب أن أظل مستيقظًا وأن أذهب لأوقد نارًا ليروني ليلًا. دفع رزق بجسده إلى الأمام ليقوم لكن ساقَيه لم تتحركا. طقطقت عظام ظهره بعنف بسهم من ألم واخز بطول سلسلة ظهره فانهار جسده كله منبطحًا على الرمل. أغمض عينيه وهلة ثم فتحهما. كانت الشمس لا تزال حامية فوضع راحتَي يديه على عينيه ليحميهما.

* * *

في البداية، تشعر بالغربة وبالرهبة، وتشعر بالتزام وعبء ثقيل ومسئولية. تدقق عشرين مرة في كل ورقة تُعرَض عليك، وتطلب من جميع الوكلاء رأيهم وتستطلع الحالات السابقة، وعندما توقِّع يكون مدير مكتبك على وشك أن ينفد صبره منك، ولا ييأس من أن يذكّرك بأنها مسألة روتينية بحتة و«لاتشغل بال سعادتك بهذه الأمور التافهة». ولكنك لا تصدقه لعدة أسباب: أولا لأنك بطبعك لا تصدق أحدًا والحذر خير من الندم. ثانيًا لأنه صاحب مصلحة، وهو من المؤسسة، وكان مدير مكتب الوزير القديم ومن ثَمَّ لا بد وأنه متورط في أي أخطاء سابقة. ثالثا لأنك تريد أن تكون مختلفًا، وأن تُحدِث فرقًا وأن تُشعِر الجميع بهذا الفرق. أنت وزير ليس ككل الوزراء. أنت النوع الجديد من الوزراء، الجيل الجديد. أنت تكنوقراط. محترف. غير متورط في السياسة ومثالُ الكفاءة والذكاء. أنت رمز التحديث والتطوير والمستقبل. نظيف، لم تمتد يدك قط إلى المال العامِ ولن تمتد، ولا تدين بمنصبك إلى قرابة أو عصابة وإنما إلى ذهنك وعبقريتك وكفاءتك، ومن ثَمَّ لن توقّع هذه الورقة التافهة، هذه الورقة التي لا قيمة لها، إلّا بعد أن تتحرى الأمر وتتأكد من أنها رمز للإدارة الجديدة، ثم: لا يكفي هذا. بعد أسبوع واحد تدرك أن هناك مليون ألف ورقة من هذا النوع يجب أن توقِّع يوميًّا وإلّا توقف العمل تمامًا. وإلّا توقف الناس عن السفر في مهمات، وتوقفت الوزارة عن شراء المعدات، وتعطلت حركة الترقيات ثم التنقلات، والبدلات والامتيازات والتهاني والتعازي إلخ إلخ. والحل؟ ثورة إدارية. تغيير شامل في الوزارة. خطة جديدة وتنظيم جديد وأسلوب جديد. نقلة حضارية. تجمع كل وكلائك، ومديري القطاعات والمناطق والإدارات المركزية، وتشكِّل لجنة لإعادة تنظيم الوزارة، وتشيع جوًّا من القلق والترقُّب والتحفُّز. تفتح مكتبك لكل من يرغب في لقائك من الموظفين يومًا في الأسبوع، وعندما يبدأ رأسك في التحلل من كثرة من يأتونك ليحدثوك أو ليحثوك أو ليثنوك أو ليشكوا إليك أو ليمدحوك أو ليرجوك أو ليغروك، وتتوه في متاهات هول ما تسمع، تبدأ في اصطناع الأعذار لتغيب عن المكتب في هذا اليوم: تذهب إلى مجلس الوزراء أو تجتهد لتكون مواعيدك في مجلس الشعب في نفس اليوم أو تقوم بزيارات لا بد منها أو استقبالات عاجلة. كله في ذلك اليوم المخصَّص لاستقبال الموظفين. ثم تختصره رسميًّا إلى ساعة واحدة في اليوم بالنظر إلى انشغال جدول سعادتك، ثم تطلب من مدير مكتبك أن يحلّ محلك في معالجة المشكلات البسيطة، ثم المعقدة أحيانا، ثم يذوي الموضوع وينتهي، وبعد ستة أشهر تكون اللجنة قد انتهت من دراسة سبل تطوير العمل في الوزارة وأعدت تقريرًا من مائتي صفحة على الأقل لهذا الغرض. وتتوه تتوه في هذه الصفحات، ثم تختار شخصين أو ثلاثة من معاونيك الذين أصبحوا مقربين والذين تتوسم فيهم الذكاء لدراسة تقرير اللجنة وتلخيصه لك. ثم تعتمد عليهم في تنفيذ ما سيتم تنفيذه والإشراف عليه. ستُلغَى إدارات وتنشأ إدارات جديدة. وستُدمَج اختصاصات وتنشأ اختصاصات جديدة. وسينتقل موظفون من مكاتبهم إلى مكاتب أخرى. وتزاح يافطات كثيرة وتظهر يافطات جديدة بأسماء الإدارات الجديدة وتظهر مطبوعات جديدة تحمل أسماء القطاعات والإدارات والوحدات. ويتمّ طلاء المبنى بالكامل والتعاقد على تجديد دورات المياه في كل الأدوار، ويرتدي رجال الأمن زيًّا خاصًّا وعمال المصاعد زيًّا خاصًّا وعمال البوفيهات زيًّا خاصًّا وعمال النظافة زيًّا خاصًّا، ويتم تنظيم الدخول والخروج وعمل بطاقات للزوار وسجلّ لهم وربما يتم تجديد صالون الاستقبال في مدخل الوزارة وتُمنع الزيارات الخاصة في المكاتب، وتأتي شركة التليفونات لتركِّب البي بي إكس ليربط المكاتب بعضها ببعض، وتصدر قرارًا بتعيين عشرات المديرين ونقل عشرات الموظفين وربما تعيِّن بعضًا ممن كنت تعرفهم

وتتوسم فيهم الذكاء والكفاءة ويشاركونك الأحلام والطموحات والرؤية الحديثة، تعيِّنهم في مناصب قريبة منك لتشكِّلوا جميعًا فريقًا للعمل. ثم يظهر الكمبيوتر. ويأتي لك أصحاب شركات شباب لا تعرف لهم أولًا من آخر، كلٌّ يقسم بأغلظ الأيمان أنه سيمدك بأقوى الماكينات وأفضل البرامج وأعظم الخبراء وكل ذلك بأرخص الأسعار. وتشكّل لجنة لتلقي العطاءات وفحصها، ثم لا تثق في اللجنة ولا في أعضائها ولا في أصحاب الشركات التي لم تسمع بها من قبل فتحدّث وزيرًا آخر يشير عليك بأن تلجأ إلى كُبْرَيَات الشركات العالمية لتركِّب لك نظامًا مضمونًا للحاسب الآلي، وتُفجَع عندما تسمع التكلفة، ولكن التحديث واجب وجزء هامٌّ من إسهامك في تطوير العمل فتجد خانة فاضية في ميزانية الوزارة لدى وزارة المالية أو لدى وزارة التعاون الدولي والمعونة الأمريكية تسمح لك بإتمام الصفقة فتتمها أمام عدسات التلفزيون التي تعودت أن تأتيك في مكتبك كلما كان في الموضوع جهة أجنبية. وتبدأ الشركة الدولية ذات السمعة المرعبة في توريد الأجهزة وتركيبها وتحميل البرامج والنظم وأشياء أخرى لا تدري كنهها. ويأتيك على مكتبك ضيف جديد. أبيض اللون ملوَّن الشاشة فاجر الأناقة، وتشعر بالاطمئنان الحقيقي وأنت جالس على مكتبك وأمامك على اليمين يربض هذا الجهاز المعجزة الذي سيضع الوزارة كلها في مستوى حضاريّ لم يسبق له مثيل ويضعها كلها بين يديك وعلى مكتبك. ويتمّ الافتتاح، ثم تبدأ فصول المأساة التي لن تنتهي أبدًا ولا حتى بعد خروجك من الوزارة.
في البداية تدخل في باب التدريب ليتمكن الموظفون من التشغيل، ويتحول باب التدريب هذا إلى نهب غير مسبوق لفلوس الوزارة لصالح نفس الشركة الدولية التي تقوم بالتدريب. كما يتحول إلى باب عظيم للتزويغ والراحة من العمل للموظَّفات اللاتي يرغبن في رعاية أبنائهن مع الاحتفاظ بالمرتَّب. ثم يبدأ الذين تدربوا بالفعل وتعلموا في الاستقالة من الوزارة والعمل بالخارج، ثم يقترح عليك مدير فالح أن تنشئ إدارة خاصة للتدريب وأن تفسخ العقد مع الشركة الدولية وتوفر الملايين من ذلك، وستكون هذه كارثة أكبر لأنه بالإضافة إلى الفشل في التدريب فإن كل المشكلات الأخرى لن تنتهي. بالإضافة إلى أن مديري التدريب سيبدءون عما قريب في إدخال تعديلات في البرامج الأصلية تحت زعم تلافي عيوبها. في هذه الأثناء ستكون الشركة الدولية قد رفعت على الوزارة قضية وغالبًا كسبتها ولا سيما لو كان العقد يبيح لها أن تقاضيك في الخارج، وتكون البرامج الأصلية قد دخلت في أزمة حقيقية نتيجة لفتاوى مديري التدريب والحاسب الآلي ويتعطل العمل ويأخذ وقتًا أطول ومجهودًا أكبر ويصبح أغبى بكثير وتشعر كلما دخلت مكتبك ورأيت فوقه هذا الجهاز الأحمق بغصّة في حَلْقك.
في البداية، تشعر بالغربة وبالرهبة. وتشعر بالتزام وعبء ثقيل ومسئولية، وعندما تصل إلى اجتماع مجلس الوزراء، تصل وأنت مثقل بملفّات في حقيبتك وبموضوعات في رأسك، وبأسئلة في مفكرتك وبقلق عميق في قلبك وبقراءة فاحصة قضيت فيها ليلتك. تجلس بعيدًا، أو ما تتصور أنه بعيد، ثم تكتشف أن كل الأماكن امتلأت وأنك جالس بالضبط بين الذين كنت تراهم في نشرة أخبار التاسعة مساءً. ولا تفهم أي شيء ممَّا يقال لمدة شهر. تدقق في وجوههم. أهُمْ هُمْ؟ أهذه الوجوه حقيقية أم صور؟ هذا وجهه أطول قليلًا مما يبدو في التلفزيون، وهذا دمه أثقل كثيرًا، وهذا أقصر قليلًا وأتخن كثيرًا، وهذا التجاعيد في وجهه أكثر، وهذا أحقر بشكل عامٍّ وتبدو من نظراته حقارته وتفاهته، وهذا لا يرفع رأسه أبدًا وهو يتكلم، وهذا أكثر جدِّية ولا يبتسم، وهذا يجلس دائمًا بجوار الفرعون ولا يتحدث مع أحد. ثم يسألك رئيس الوزراء فجأة عن رأيك في موضوع يناقشونه وليس لديك أدنى فكرة عن كنهه فتتلعثم وتحمرّ وتصفرّ وتقول أي كلام فارغ ثم تصمت

فجأة محاولًا أن تضفي على ما قلت طابع العمق والمبدئية فيصمت الجميع في إحراج إذ أدركوا أنك لم تكن تتابع بالمرة مجرى الحديث، ثم يتدخل واحد منهم منقذًا إياك بفتوى من عنده فتتحول الأنظار إليه عدا رئيس الوزراء الذي يحدّق إليك بعض الوقت بنظرة لا تفهم ولن تفهم أبدًا معناها، وفي المرة التالية تظل تتابع مجرى الحديث كلمة كلمة ولكن أحدًا لن يسألك عن شيء، وبعد الاجتماع يقترب منك واحد منهم ويحيِّيك وأنت مرتبك في أوراقك ويقف معك ليحدِّثك في أمور لا قيمة لها ويسألك عن أناس لا تعرفهم ثم يدعوك إلى شاي أو حفل أو نزهة أو أي شيء للتعارف، وتكون تلك هي بدايتك الحقيقية كوزير.

* * *

نظر إلى جسمها الممدَّد على الفراش. إلى ظهرها الذي انحسر عنه الغطاء. فاتنًا في حمرته السمراء. شدّ نفَسًا عميقًا من سيجارته. نظر في ساعته: السادسة صباحًا. قام من المقعد الوثير المواجه للفراش وتوجَّه إلى النافذة. أزاح الستارة قليلًا. الضوء في الخارج يكاد يكون بنفسجيًّا. وشارع التحرير هادئ لم يبدأ في ضوضاء الجنون بعد. أزاح الستارة قليلًا ثم توجَّه إلى الفراش وأغلق الأباجورة. الآن يجيء الصبح ويدخل هذه الغرفة ويطرد الليل وقوانين الليل. يطرد الهدوء الناعم والسَّكينة التي تستبيح محرمات النهار. يطرد آثار البيرة والنبيذ وانطلاقة النفس من مخزن القيود والقلق والقواعد. يعيد الروح المشردة إلى سجنها والقناع إلى وجهي وإلى قلبي. ماذا كان اسمها؛ هذه الفتاة النائمة في فراشي؟ ليلى؟ أو لبنى؟ أو لمياء؟ أو أي اسم آخر، وما أهمية اسمها؟ لعلها كذبت عليَّ. لعلها اخترعت لها اسمًا كانت تودّ وهي صغيرة لو أن أهلها قد سمَّوها به، ولعلها اخترعت تلك القصص الطويلة التي كانت ترويها عن حياتها. لعلها حياة أخرى كانت تودّ أن تحياها. مثلنا نحن الاثنين هنا معًا. نخلق حياة وهمية كنا نودّ لو كانت حياتنا. نخلقها ليوم واحد أو ليلة واحدة أو نصف ليلة مرة كل أسبوع لمدة ثلاثة أشهر ثم ندرك أن لا فائدة وأن حياتنا الحقيقية ـ تلك التي لا نستطيع التخلص منها أبدًا ـ تحاصرنا وتحصرنا هنا في مربعنا الصغير وفي قناع الغاز السخيف على وجوهنا. وماذا كنت أقصّ أنا عليها؟ لا أتذكر. شيئًا عن الوكالة، شيئًا عن العفن السائل في الشوارع، شيئًا عن قناع الغاز الكريه الذي لا بد منه، شيئًا عن التجهيزات المضادة للتسرب التي ركّبتها في الشقة منذ شهرين ومكّنتنى أخيرًا من اصطناع حياة شبه طبيعية داخل الشقة. شيئًا عن النبيذ الفرنسي وعن محمود درويش، ولا أعرف ما الصلة بين كل هذه الموضوعات.

ربما لم تكن هي الأخرى تسمعني مثلما كنت أنا أيضًا لا أسمعها. هي مساحة للبوح بيننا ولا يهمّ أن نسمع بعضنا. تقلبت على السرير لتبعد وجهها عن الضوء في المخدات. نظر ناصر إليها مليًّا. قام إلى المرآة وأحضر البايب وملأه ثم أخذ في إشعاله. شدّ نفَسًا عميقًا ثم أنفاسًا قصيرة وسريعة. كانت رائعة في الجنس. لا، غير حقيقي. لا، لا أتذكر. هل كانت هي الرائعة أم تلك الفتاة التي قابلتها الأسبوع الماضي في مهرجان السينما؟ لا أتذكر، ولولا علامات أكيدة لشككت أني مارست الجنس معها بالأمس أصلًا. لا بد وأنها كانت رائعة. امرأة بهذا السحر لا بد وأنها رائعة في الجنس، ولكن لماذا لا أتذكر؟ هل أفرطْت في الشراب إلى هذا الحدّ؟ انطفأت توليفة البايب فقام. مشى خارجًا من غرفة النوم إلى الصالة، إلى المطبخ المفتوح على الصالة. وضع البن في الكنكة على النار ووقف ينتظر. نظر إلى ماكينة القهوة التي أحضرها له فخر الدين من باريس في العام الماضي أو الذي سبقه، لم يعد يتذكر أو يهتمّ أن يتذكر. حاول عدة مرات أن يُعِدّ القهوة عليها ولكن القهوة كانت تخرج ماسخة لا طعم لها. قال فخر الدين إنها تعطي أفضل النتائج مع البن الفرنسي. ابتسم ناصر. نحن لا نجد الماء هنا يا ابن الكلب فمن أين لي بالبن الفرنسي. صعدت القهوة في الكنكة إلى قرب حافتها فرفعها ناصر وصبّها في كوب القهوة. لم يغسله منذ أسبوع. كانت الوكالة قد وزّعت عليهم حصص المياه المعدنية ناقصة هذا الشهر ومن ثَمَّ كان عليه أن يقتصد إلى أقصى درجة في استخدامات المياه. كان بطبيعته يشرب قليلًا من الماء ولكن كثيرًا من القهوة والشاي، ومع الحبوب الجديدة التي طرحتها الشركة في الأسواق، والتي تليِّن الهضم وتحلّ بذلك جزئيًّا محل الماء، أصبح في حِلّ من الشرب تمامًا. البيرة أيضًا تحلّ محلّ الماء طبيًّا، ولكن الكارثة في مياه الغسيل التي كانت المحافظة توزّعها على العمارات والتي أخذت تتناقص في الشهور الأخيرة ثم

اختفت تمامًا. كان البوّاب هو الذي يتولى تحصيلها وتوصيلها إلى الشقة، ومنذ شهر: ولا قطرة واحدة. ثم اكتشف البواب أناسًا يبيعونها في السوق السوداء، ولكن سعرها كان فظيعًا. ربما خمسة أو ستة أضعاف السعر الذي كانت المحافظة تبيع به، والذي كان في رأي الكثيرين سعرًا فاحشًا، وكان بالفعل فوق طاقة الكثيرين، ومن ثَمَّ بدأتُ في إلقاء الملابس المتسخة بدلًا من غسلها، وعرفت طريق الملابس الكلينكس التي تلقى بعد ارتدائها سبع مرات، وتلك المصنوعة من الألياف الصناعية والتي لا تتسخ لأنها لا تمتص العرق ولا يلتصق بها التراب أو العفن السائل ولكنها أغلى كثيرًا ولا تُلبَس إلّا فوق ملابس أخرى كلينكس. أخذ ناصر كوب القهوة وعاد إلى الغرفة. كانت الفتاة لا تزال نائمة ومختبئة تحت الغطاء. شعر ناصر بالبرد. وضع كوب القهوة أمام المقعد وتوجه إلى جهاز التكييف ليطفئه. توقف لحظة ونظر إلى الفتاة المتدثرة بالأغطية ثم عدل عن رأيه. سحب الروب البني من فوق الشماعة وارتداه. جلس يشرب القهوة. المشكلة الأخرى كانت في الاستحمام والنظافة الشخصية وفي غسيل الأطباق والأكواب وخلافه. بدأ ناصر منذ فترة يستخدم اللوسيون الذي طرحته الشركة والذي يمسح على الجسم بقطعة من القطن فينظفه دون الحاجة إلى الماء. كان مطهّرًا جيدًا ولكن رائحته كانت ديتولًا لا حلّ لها. ولكن الأنواع الجديدة كانت معطرة بعطور مختلفة. أما الأواني فكان لا يغسلها إلّا مرة في الأسبوع؛ ولذا كان يحتفظ بها في الثلاجة بعد الأكل فيها حتى لا يتحلل الأكل أو بواقيه ويتسبب في مشكلات لا لزوم لها. نفس الشيء للأكواب، ثم ينظفها باللوسيون إياه ثم يمسحها ببعض الماء في النهاية إن نجح البوّاب في شراء لتر أو اثنين كل أسبوع وإلّا غسلها من حصته من مياه الشرب المعدنية. تقلبت الفتاة في الفراش في قلق من يوشك على الاستيقاظ. نظر إليها ناصر مرة أخرى بتمعُّن. كان وجهها الآن واضحًا في مواجهته. لم أره بوضوح هكذا بالأمس. ربما من تأثير البيرة. صافٍ ورائق. خمرية البشرة، دقيقة الملامح، هادئة ونائمة ومستسلمة. شعرها أسود قصير. نظّارتها الطبية الرفيعة على الكومودينو. عنقها أكثر خمرية من وجهها. كأنها هندية حمراء. كان ينظر إليها بإمعان عندما فتحت عينيها فجأة. نظرت إليه فوجدت عينيه في عينيها. ابتسمت ابتسامة واسعة وراضية. أغمضت عينيها ثانية لحظة. توقف ناصر عن التفكير في الماء وفي الأواني وفي اللوسيون وظل محدقًا إليها. فتحت عينيها مرة أخرى وابتسمت، أزاحت الغطاء قليلًا ثم قامت واقفة مرة واحدة. عارية تمامًا:

ـ صباح الخير.

قالت، ثم سارت ومرت بجواره فاحتك جانب خصرها الأحمر بجانب الروب البني عند كتفه. سارت في اتجاه الحمام. ظل ناصر ناظرًا حيث كانت. عادت فأوقفها، التصقت بساعده ولم تتحرك. طوقها وضمَّها إليه. أسندت رأسها إلى كتفه العريض ولم تنطق بكلمة. أمسك بها من كتفيها ورفع رأسها إليه. نظر في عينيها فابتسمت ثانية. مال عليها وقبَّلها ثم ضمّها إليه بشدة.

* * *

كانت عربات القطار تنهب الطريق من حلوان باتجاه القاهرة. يتوقف القطار كأنما فجأة عند المحطة. لحظات قليلة ثم تدوي صفارة حادة وتنهبد الأبواب مغلقة لوحدها ويطير القطار ثانية. عبد العال القابع في كرسيه الوحيد في آخر العربة الأخيرة خائف ومرتاب. ما الذي جرى لهذا القطار الغريب؟ لم يكن سريعًا هكذا ولا مخيفًا هكذا، وأين ذهب الكمساري وكيف تنغلق الأبواب وحدها هكذا؟! أجُنَّ هؤلاء الناس؟ كيف تنغلق الأبواب هكذا؟ وماذا لو انغلقت عليّ وأنا خارج؟ كيف آمن الناس لهذا القطار المرعب؟ نظر عبد العال في خلسة حوله. لا أحد يبدو عليه دهشة أو خوف. ربما هم أيضًا خائفون ولكن يتظاهرون بالصلابة مثلي. لكن النساء؟ لا يبكين ولا يرقعن بالصوت الحيّاني ولا أي شيء. حتى الأطفال يلعبون حول أهاليهم ولا كأن هناك أي شيء غير عادي. معقول يتغير حال الدنيا هكذا في سنة؟ أكيد حكاية التلوث هذه هي السبب. «حتى عندنا في البلد وزّعوا علينا غطيان الرأس البلاستيك وقالوا لنا إن لم نلبسها طول النهار والليل نموت، وبعدين في الأول طبعًا ماحدش صدّق. ما هي الحكومة طول عمرها بتقول كلام ولا يتحقق، والناس أخذت الغطيان ووضعتها عندها بالبيوت ولا عملوا بها حاجة. غير أن العيال صاروا يلعبون بها استغماية، وبعدين جاءت الهوجة بعد الفيضان وراح فيها نحو نصف البلد. الله يرحمهم». أفاق عبد العال على انطفاء النور فجأة وحلول الظلام. نظر حوله في انزعاج. كان كل شيء مستمرًّا في عاميته غير أن السماء قد اختفت والأشجار والهواء والنور وكل معالم الحياة. ظلام مطبق يحيط بالقطار المنطلق في طريقه أعمى. الناس لا يبدو عليها أي تأثر بما حدث. كأن السماء تنطفئ كل يوم من حولهم هكذا، فجأة ظهر نور ساطع وبدت معالم حياة. ناس وحوائط وعساكر ولافتات. توقف القطار فطار عبد العال ناحية الباب وألقى بنفسه خارجًا قبل أن ينغلق عليه الباب الغادر. وقع على أرض الرصيف ومن حوله انفرطت خلجاته. حركة الداخلين إلى القطار والخارجين لا تنقطع ويمر الناس وسط حاجاته المبعثَرة.

ـ يا أخي ما تاخد لك جنب كده.

دفعه الرجل القصير ذو النظارات الطبية السميكة والكيس الورقي الأصفر. دوّت صفّارة القطار ثم انطلق فجأة مثلما وقف. تنفّس عبد العال الصعداء وهو يلمّ خلجاته في بؤجته. كان الناس من حوله قد اختفَوا جميعًا عدا عسكريّ أسود الملابس يتمشى في آخر الرصيف. نظر من حوله. كان كأنما داخل مصلحة حكومية. هل هذه محطة قطار؟ هل أحلم أم أن عقلي قد ضرب؟ حمل خلجاته وسار داخل المحطة. كانت تشبه تلك التي ركب منها في حلوان. أسهم وإشارات وكلمات لا يفهمها على لافتات بيضاء صغيرة. ظلّ سائرًا مخلّفًا الرصيف والقضبان وراءه. لاحت له سلالم في نهاية الصالة الواسعة. اتجه إليها. حاجز من الأسوار المعدنية الفضّية اعترض طريقه. وقف قبلها بقليل. نظر إليها ثم نظر حوله. تقدم إليها ودفع نفسه من فتحة فيها. لا تنفتح، وبعدين في هذه المصيبة الأخرى؟ عاد عبد العال إلى الرصيف واقترب من العسكري:

ـ السلام عليكم يا شاويش.

ـ إيه يا بلدينا؟

ـ هو إيه ده يا شاويش؟

ـ إيه اللي إيه يا بِلد؟

ـ إيه الهلومّة دي؟

نظر العسكري إليه في ارتياب:

- دي محطة سعد زغلول.
- إيه محطة سعد زغلول دي؟ فين يعني؟
- فين يعني إيه؟ دي محطة سعد زغلول اللي بعد محطة السيدة يا بِلد.
- السيدة زينب؟
- إيوه.
- شي لله يا سيدة. ما شاء الله. دي محطة القطر؟
- إيوه يا بلد، دي محطة القطر، مترو الأنفاق يعني.
- مترو؟ مش ده قطر حلوان؟
- إيوه يا بِلد هو، بس اسمه مترو الأنفاق، ما هو ده مترو الأنفاق اللي بيقولوا عليه في التلفزيون. إنت مش واخد بالك إننا تحت الأرض ولا إيه؟
- تحت الأرض؟ مين ده اللي تحت الأرض؟
- إحنا دلوقت يا بِلد.
- إحنا تحت الأرض؟
- آي نعم.
نظر عبد العال إلى العسكري وأُسقط في يده. «بسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. الراجل ده مجنون ولا إيه؟ ولّا نكون تحت الأرض بصحيح يا عبد العال؟ يانهار إسود. أكونش اتندهت ونزلت مع الـ... أعوذ بالله... أعوذ بالله». نظر عبد العال إلى العسكري والرعب بادٍ في عينيه. تراجع خطوتين إلى الوراء. إلى الوراء في اتجاه الرصيف. «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». اقترب الجندي منه مادًّا يده ليمسكه كيلا يقع على القضبان الحديدية. تراجع عبد العال أكثر عندما رأى يديه تمتدّان. كانت هناك ضوضاء تتصاعد والعسكري يقترب منه مادًّا يديه. صرخ عبد العال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». الضوضاء تتصاعد. استدار عبد العال: وانطلق يعدو. دخل المترو إلى المحطة. عبد العال يعدو بجوار الرصيف والجندي يجري وراءه. انفتح باب القطار فألقى عبد العال بنفسه داخله. توقف الجندي. أغمض عبد العال عينيه وهو يستعيذ بالله. دوَّت الصفارة وانطلق القطار خارجًا من المحطة.
* * *
- يا ولاد الكلب!
نظرت سحر عيسى إلى أعضاء الوفد وهم يبتسمون للصحفيين. كان نائب رئيس الوفد الدكتور بدير البنهاوي ينهي إجابته عن سؤال أحد الصحفيين بينما تأهب بقيّة أعضاء الوفد لمغادرة صالة كبار الزوّار باتجاه الطائرة الجامبو الرابضة على أرض المطار. كان عليهم أن يتوجهوا إليها سريعًا وفقًا لتعليمات الطيران الجديدة التي كانت تمنع على الطائرات المكوث بمطار القاهرة أكثر من ثلاثين دقيقة وإلّا مكثت به إلى الأبد. حملوا حقائبهم السامسونايت وتوجهوا نحو الباب الخارجي. جاء صوت سحر عيسى حادًّا وسط همهمة السلامات الأخيرة:
- وما أخبار مشروع البحث يا دكتور بدير؟
التفت إليها الدكتور في ابتسامة واثقة:
- البحث يسير على قدم وساق ويقوم عليه مجموعة من خيرة الباحثين بالشركة.
- ولكن المفروض إن سعادتك تشرف بنفسك على هذا البحث وفقًا لتصريحات رئيس الوزراء، فكيف يتفق ذلك مع سفرك مع الوفد إلى باريس؟

ـ الباحثون على اتصال دائم ويوميّ بي يا أستاذة، بالإضافة إلى أن وجودي مع الوفد بناء على تعليمات السيد رئيس الوزراء، كما أنه سيسهم في تنشيط وتدعيم البحث الجاري حاليًا بمقارنة نتائجه المبدئية مع النتائج التي توصلت إليها الدول المتقدمة.
مرَّ مسافر عربيّ طاعن في السن ومن خلفه شابّ نحيف طويل القامة وامرأة في الثلاثينيات. توقف الدكتور بدير عن الحديث وهو ينظر إليها. نظرت المرأة إليه طويلًا وهي تمر بجواره. نظرت سحر إليها وقالت لنفسها: امرأة أخرى تبيع نفسها من أجل اللقمة.
استطرد الدكتور بدير:
ـ كما أن هذه الزيارة ـ مثلما ذكرت لزميلك ـ ستساعدنا على تطوير إنتاج الشركة من أقنعة الغاز، والآن أشكركم جميعًا على اهتمامكم بالحضور.
ـ ولكني لديَّ معلومات من باحثي الشركة بأنهم يجدون صعوبة شديدة في الاتصال بك، وأنك لم تأخذ معك حتى صورة من النتائج المبدئية للبحث.
التفت إليها الدكتور بدير متبرمًا:
ـ يا أستاذتي العزيزة هذا كلام أقل ما يوصف به أنه غير دقيق، ولكن لنؤجل الحديث فيه إلى بعد عودتنا من المفاوضات.
ـ ولكنك لم تجب عن سؤالي!
أشار الدكتور بدير بيده مودِّعًا وهو يتقدم الوفد خارجًا من الصالة. عند الباب وضعوا أقنعة الغاز الجديدة. انفتح الباب وخرجوا إلى الهواء. استقلّوا عربة صغيرة وهم يلوّحون للمصورين. سارت العربة باتجاه الجامبو. وضع علاء يده على كتف سحر مبتسمًا:
ـ بالراحه على الراجل يا سحر!
ـ ده ابن وسخة.
نظرت سحر إليه وهي ما زالت قرفانة:
ـ شيل إيدك من على كتفي يا وله. إحنا ح نتصاحب ولّا إيه؟
وضعت سحر حقيبتها على كتفها ومضت في اتجاه باب الخروج. لا فائدة. ما دام هؤلاء يسيطرون على مقاليد الأمور فلا فائدة. طبعا هم مسافرون إلى باريس ليتفسحوا ويستنشقوا بعض الهواء النقي ويتبضعوا من بدلات السفر وخلافه. ولا بحث ولا مفاوضات ولا دياولو. أي بلاد متقدمة تلك التي سيقارن نتائج البحث بها؟ بالأمس أخبرها صديقها الذي يعمل بوكالة الأنباء أن المفاوضات لن تبدأ قبل أسبوع من الآن. صديقة أخرى تعمل في الشركة قالت لها إن الدكتور بدير غاضب على الباحثين الذين يعملون في المشروع وإنه عامل لنفسه شلة من بعض الباحثات والسكرتيرات وإن بقيّة إدارة البحوث في الطراوة، وبقية أعضاء الوفد جَهَلَة ولم يسبق لهم السفر إلى الخارج أو الاشتراك في أي مفاوضات. لكن مولانا الفرعون قد قرّر مكافأتهم كلٌّ لسبب مختلف بهذه الرحلة إلى بلاد النور. فراعين فراعين. وضعت سحر قناعها على وجهها وهي تُهرَع خارجة من المطار إلى موقف الأتوبيس. كان أتوبيس ٤٠٠ واقفًا فقفزت فيه واحتلت لنفسها الكرسي الذي خلف السائق مباشرة. «وعندما أفتح فمي يقولون عني إنى منحلّة. أوكيه. أنا منحلّة، ومَن في كل هؤلاء البشر غير منحلّ؟ مَن في هذا العفن السائل في الشوارع والطافح في الهواء يستطيع أن يزعم أنه نظيف؟». تحرك الأتوبيس بطيئًا. فلول من الصعايدة الذين كانوا يودّعون صعايدة آخرين راحلين إلى العراق يقفزون في الأتوبيس الذي ما زال يطوف حول الموقف. آخرون قادمون من العراق يقفزون بحقائبهم داخل الأتوبيس. شابّ وفتاة في الكرسي المجاور

يختلسون لمسات مشبوبة وخاطفة. ابتسمت سحر: «يا ولاد الهبلة. ما تطلعوا على أي مصيبة وتخلّصوا نفسكم! في الأتوبيس؟!»، أخذ الأتوبيس سرعته وانطلق في شارع المطار. أغلقت سحر نافذتها: «هذا ليس هواءً لأستنشقه. الساعة الآن الرابعة عصرًا. يجب أن أذهب إلى السفارة الأمريكية في السابعة مساءً للقاء مسئول الأمن هناك وسؤاله عن التجهيزات الجديدة التي يقال إن السفارة قد اتخذتها لحماية موظفيها من التلوث، وبعد ذلك يجب أن أذهب إلى المجلة لتسليم الموضوعين. هذا الكلام لن ينتهي قبل العاشرة مساءً. هل أذهب إليه بعد ذلك أم أذهب الآن وأتركه في السابعة؟» ابتسمت عندما تذكرته. «ما الذي أدخل هذا الشخص الغريب في حياتي؟ وكيف تركته يقتحمني بهذه السرعة؟ صحيح أني عرفت رجالا كثيرين، ونمت مع رجال كثيرين، ولكني لم أترك نفسي لأحد بهذه السرعة قط. المهم أنه ليس فيه أي شيء غير عادي. لا هو متحدث لبق ولا دمه خفيف ولا حلاوته مش على حد ولا أي شيء. صحفي عادي، مثقف نعم وسمعت عنه قبل ذلك ـ من بنات أيضًا ـ نصف مجنون ونصف بدائي. لكن فيه شيئًا جذابًا بشكل غير عادي لا أدري ما هو. ربما حالة عدم المبالاة التي لا يخرج منها هذه، ربما وحدته وبرِّيته، ربما خشونته وعبقريته معًا. طبعًا هناك أشياء أخرى اكتشفتها بعد ذلك، وهي أشياء تؤكد أن غريزتي لم تخطئ الاختيار». كان الأتوبيس قد وصل إلى شارع رمسيس وتوقف في الزحام عند غمرة. العرق يتكون خلف أذنَي سحر ويزحف على بشرتها السمراء المحمرّة. مدت يدها في حقيبتها وأخرجت منديلًا كلينكس مسحت به عرقها. تبدو حمراءَ أكثر في هذا الحر. نظرت إلى الشارع المزدحم بالسيارات الواقفة وزفرت في ملل:

ـ بدأنا القرف.

* * *

مدت السفيرة يدها إلى جهاز الكمبيوتر لتفتحه. استدعت ملف البرقيات المرسلة، وبدأت:

سري للغاية

من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية بالقاهرة

إلى وزارة الخارجية ـ واشنطن

١ ـ تناهى إلى علمنا اليوم أن الموت يضرب في أنحاء بولاق الدكرور وإمبابة منذ أسبوعين على الأقلّ، وهذان الحيان كانا حتى وقت قريب من الأحياء الشعبية الأكثر ازدحامًا (برجاء الرجوع إلى برقياتنا عام ١٩٩٢ حول نشاط الجماعات الإسلامية في إمبابة)، وتجيء هذه التطورات نتيجة عاملين رئيسيَّين:

ـ الأول هو تسرب الأشعة تحت الحمراء من المنطقة المعلَنة منطقة كوارث بيئية بسقّارة.

ـ والثاني هو استفحال العفن والتلوُّث بالمنطقتين.

٢ ـ وفور بدء الوباء زحف الأهالي باتجاه منطقة المهندسين فقامت قوات الحرس الفرعوني بتطويق المنطقة ومنع الأهالي من عبور جسرَي ناهية والكوبري الخشب الموصِّلَين إلى المهندسين والدقي، وقامت بعثة فنية من الحرب الكيماوية ومن الشركة بالتوجُّه إلى المنطقة الموبوءة لفحص الحالة وخلصت هذه البعثة إلى أن المنطقتين قد أصيبتا إلى غير رجعة. ومن ثَمَّ أعلنت وزارة الداخلية مساء اليوم أن كردون المدينة سينتهي بحذاء شارع السودان اعتبارًا من منتصف الليل، وقامت قوات الحرس الفرعوني بمعاونة فنيِّي الشركة بإقامة الحواجز الأتوماتيكية بطول شارع السودان لمنع أي شخص من الخروج من هاتين المنطقتين، وقد أبلغتنا المصادر أن عدد الموتى داخل إمبابة وحدها يقدر بالآلاف، وأن الجثث تنتشر بطول مجرى النيل. وقد بدأت وحدة الوقاية (من الشركة) برشِّ الموادِ الكيماوية بالطائرات فوق مجرى النيل من ناحية الزمالك لحماية المدينة من أي عواقب وبائية قد تنتج عن تراكم الجثث على الجانب الآخر.

٣ ـ في اتصال هاتفي اليوم مع نائب مدير الشركة (لغياب المدير في مهمّة بباريس) أبلغني أن الحكومة قد قررت وقف أي إمدادات للمياه المعقمة داخل هاتين المنطقتين بدءًا من أمس باعتبارهما منطقتين مفقودتين. وأبلغني مندوب الصليب الأحمر بالسفارة أن وحدات خاصّة ستصل خلال أيام لجمع الجثث ودفنها.

٤ ـ ملحوظة إلى الشئون المالية:

كانت السفارة تستخدم أربعة عمال نظافة من المنطقتين المشار إليهما عاليه ولم يتوجهوا لأعمالهم منذ يومين مما يوحي بأنهم قد فُقدوا في الوباء الأخير أو على الأقل لن يستطيعوا مغادرة مناطقهم. ستقوم السفارة بنشر إعلان لشغل وظائفهما اعتبارًا من غد.

السفيرة

* * *

رفع رزق رأسه وفتح عينيه. الشمس توشك على المغيب وضوءها الأصفر الأحمر الأقحواني يملأ السحب والسماء في الأفق. الرمل الأصفر ما زال أصفر. كان رأسه ثقيلًا جدًّا والصداع يضرب نصفه بمطارق من مسامير. الجوع أو العطش أو اليأس أو كل ذلك معًا. الليل يأتي ولم يظهر أحد ليأخذني من هذه الصحراء. ربما سيأتون الآن؟ يجب أن أقوم لأشعل نارًا كي تراني الطائرات. حاول رزق أن يتحرك ولكن أيًّا من أعضائه لم يعد يطيعه. ليس أمامك سوى الاستلقاء هكذا كالنعجة التي تنتظر موتها. أين الطائرات والجنود ورفاق السلاح؟ وأين ذهبت مخلتي وطعامي وشرابي؟ أين ذهب بقيّة الجيش؟ وأين الأعداء؟ أسند رأسه على الرمل وأغمض عينيه. جاء عبد العال ضاحكًا وهزّه بقوّة. مد يده بزمزمية الماء إلى فمه. رفع رزق رأسه وأخذ يشرب ويشرب والزمزمية لا تنقص. دخلت أم سليمان حاملة صينية الطعام. اعتدل رزق في رقدته ومد يده إلى الصينية. قسم البطة قطعتين ورفع نصفها إلى فمه وهو يشير إلى أمّ سليمان وعبد العال أن يأكلا. دخل سليمان ومحمدين وسيد وعلي والتفوا جميعًا حول رزق. افترشوا الأرض الطينية وبدءوا جميعًا في الأكل. كان الجرجير طازجًا خارجًا لتوّه من الحقل والماء لا ينقطع من القلل الرطبة المندّاة. ابتسمت أم سليمان ودارت وجهها بطرف طرحتها.

ـ ألم يحن الوقت يا عبد العال لتتزوج؟

أكمل رزق:

ـ آي والله، وآهي أخت أمّ سليمان كبرت وجاءها الخُطّاب.

ـ ومَن يرعى البيت والغيط في غيابك يا رزق؟ هو لو كنت أنا متجوز كنت عرفت أخلي بالي من أرض أخوك اللي في الجهادية من سنين.

ـ وما له يا عبد العال؟ تتجوز وتخلّي بالك من الأرض واهو معاك أخت أمّ سليمان إيدها بإيدك.

نظر عبد العال بعيدًا وقال:

ـ ننتظر شوية كمان يا رزق يا خوي، ماحدش يعرف بكرة جايب معاه إيه.

رزق يأكل ولكن الجوع يفتك ببطنه كأن الطعام يذهب في الفراغ. كان يحرك يديه وذراعيه ولا يتحركان. يأكل أسرع وأسرع قبل أن يفيق من الحلم ويختفي الطعام. البرد ينغز في جنبه ويشدّه خارج الحقل إلى الصحراء الجرداء التي هو مُلقًى فيها وهو يتشبث بالطعام ثم بذراع عبد العال كيلا يذهب كيلا يفيق تمامًا. عبد العال ينظر إليه وهو يردّد:

ـ نستنى شوية يا خوي ماحدش يعرف بكرة فيه إيه.

البرد ينغز فيه ويشده. حرك ذراعه ليلفها حول جنبه ليحميه من البرد فانفتحت عيناه. كان الليل صافيًا والنجوم تلمع والرمل فضيًّا. أغلق عينيه ثانية فأبصر بقايا أمّ سليمان والعيال وعبد العال والطعام مشوشًا. مد يده ليلمسهم ليبقيهم أو ليبقى معهم لكن البرد كان يعلو داخل مقلتيه والليل الصحراوي قاهر. فتح عينيه ونظر في الأفق. لا طائرات ولا جنود آتية. لا بارقة ضوء.

* * *

كان الموت ينتظرها. لا أقل من ذلك. ليس الفقر، ليس العوز، ليس سوء الحال ولا تدهوره، ليس حتى العفن ولا الجفاف ولا العطش، ليست النار المندلعة من ثقب الأوزون عند سقّارة، ليست حواجز الحرس الفرعوني حول القاهرة، ليست حملات وزارة الصحة الباحثة عن الموبوئين للقبض عليهم وترحيلهم إلى المعازل، ليس أي شيء من ذلك ولا ما هو أكثر من ذلك، بل الموت نفسه، شخصيًّا. يقف هناك، في آخر هذا الشارع الذي لم يعد شارعًا في بولاق الدكرور. في آخر

هذه المساحة من الأرض الخراب، من الزمن الخراب. في قلب هذا الخراب كان الموت واقفًا ينتظرها وينظر إليها وينظر في ساعته مستعجلًا وصولها إليه. الموت الذي كفّ عن الذهاب إلى الناس وصار ينتظرهم، كان هناك وكانت تراه وتراه جيدًا وتعلم أنه هناك ينتظرها هي ولا أحد غيرها. إما أن تذهب إليه وإما أن تذهب في هذه السيارة المعقمة الواقفة أمامها في وسط العفن السائل فيما كان شارعًا يومًا ما في بولاق الدكرور. السيارة واقفة وما عليها سوى الاقتراب ثم تمد يدها وتفتح الباب وتدخل وينغلق الباب خلفها ويشفط الشفاط القليل من العفن الذي تسرَّب داخلًا ثم تنطلق السيارة عبر كوبري ناهية وتعبر حواجز الحرس الفرعوني بتصاريح الدخول الجاهزة والموقَّعة على بياض. سيكتب اسمها على التصريح ثم تمرق السيارة. سيظهر التصريح لرجال الحرس، سينظرون فيه وسيرون التوقيع ثم تنعدل قامتهم ويظهر بعض الاحترام وبعض الخوف على سحنهم البغيضة، ثم يحركون الحواجز الأتوماتيكية وتنطلق السيارة داخلة إلى كردون المدينة. سأدخل القاهرة التي لم أدخلها منذ سنوات. منذ كنت في الثامنة وكنت أذهب إلى المدرسة. من قبل العفن ومن قبل الجفاف ومن قبل الحواجز. سأدخل المدينه وسأجد بعضًا من الماء للشرب. وبعضًا من الطعام، وقناعًا ضدّ العفن وضدّ التلوُّث وضدَّ الأشعَّة الحمراء، وسأجد مستشفى أغسل فيه كليتَيّ المنتهيتين، وسأجد مطارًا وتذكرة وحقائب. وسأجد وسأجد، وسأترك هذا الموت الذي يقف ها هنا وينظر إليّ في وقاحته. إمّا أن أفتح باب السيارة الآن وإما أن أذهب إليه عدْوًا وأنهي المسألة. مدّت فاطمة يدها إلى باب السيارة وفتحته وألقت بنفسها سريعًا داخلها قبل أن يتسرب إليها العفن، قبل أن تعيد النظر، قبل أن تفكر مرة أخرى، قبل أن يأتيها الموت الواقف أمامها. دخلت بسرعة وأغلقت الباب. انطلقت السيارة عدْوًا. تجاوزت فاطمة الموت الواقف الذي انتحى جانبًا خشية أن تدهسه السيارة. نظرت إليه في عينيه في تشفٍّ. آه يا موت يا... الآن أدوس عليك يا من عذبتني وأقضَضْت مضجعي وأخذت مني زوجي وأطفالي وأهلي واحدًا واحدًا. في وقفتك الكئيبة هذه، وكنت أراهم يأتون إليك واحدًا واحدًا ولا أستطيع لهم دفعًا. يا أكأب خلق الله جميعًا. أنا أدوسك وأدهس سيرتك وشكلك ورائحتك وسككك. أذهب الآن عالية في انتصاري عليك. سأذهب، سأسافر وأترك لك هذه الأرض الميتة كي تذوب عليها سيدًا فيها. لتحرقها وتحرقك. سأذهب أنا إلى أرض جديدة وسماء جديدة وحياة. عش أنت وحدك في موتك الأبدي. توقفت السيارة بعد كوبري ناهية. ثوانٍ وانزاحت البوابات الحديدية الثقيلة. مرت السيارة في بطء وسط الحراسة المكثفة. العيون من خلف الأقنعه ترقب الركاب. اجتازت الحواجز. الآن صارت داخل المدينة. صفرت العجلات في انطلاقة السيارة على الأسفلت وطرطش العفن على الرصيف. لا أحد يسير في شارع السودان. لا أحد. طارت السيارة في طريقها إلى المطار.

* * *

كان التاكسي يجتاز نفق الهرم مسرعًا وكانت الشمس تلقي بأشعّتها على الحي كله. منذ سفر مدير الإدارة وأنا أحاول الاتصال به بلا فائدة. كأن باريس ليس فيها تليفونات. في البداية قلت لنفسي لا بد أنه سنترال الجيزة الحقير هو السبب. دائمًا الدولي عطلان. ثم حاولت مع سنترال الجيزة الآخَر، الدولي. لكنه هو الآخر كان الدولي به عطلان. لحظة واحدة: إذا كان الدولي عطلان في سنترال الجيزة الدولي فما الذي كان يعمل إذن؟! الاتصال من الشركة كان مستحيلًا لأنه تلزم موافقة الدكتور بدير نفسه كي يُسمح لي بإجراء مكالمة دولية، ومن ثَمَّ لا أستطيع الاتصال به هو في باريس. بالتأكيد بدا لي ذلك عبثًا إداريًّا بحتًا ولكن هذه هي اللوائح وليس هناك ما يمكن عمله. حاولت مع سنترال الدقي ثم التحرير ثم مصر الجديدة ثم ألماظة ثم المعادي إلخ إلخ، ودائمًا نفس النتيجة. كل صباح آخذ تاكسي وأدور به في المدينة كلها بحثًا عن سنترال به خط دولي ولا فائدة، وبعد شهر قلت الأفضل أن أنتظر عودة الدكتور بدير. لكنه عندما عاد مكث ليلتين فقط ولم أتمكن من رؤيته. في أول ليلة كان لديه اجتماع مع مديري الإدارات وبالطبع لم أستطع مقابلته، وفي اليوم التالي ذهب إلى القصر الفرعوني وبالقطع لم يكن هناك محلّ للسؤال عن إمكانية مقابلته. مدير مكتبه نظر إليّ من خلف نظارته الرفيعة في دهشة عندما سألت عن إمكانية مقابلته: باقول لحضرتك الدكتور راح يقابل الفرعون. ثم سافر ثانية. منذ متى كان ذلك؟ من شهر أم أكثر؟ لم أعُد أتذكر. التاكسي يسير في قلب شارع الهرم الآن. عبد الوهاب أنهى أغنيته فامتدّت يد السائق لتقلب الشريط.

ـ ممكن الأخبار؟

نظر السائق إليّ شزرًا:

ـ الراديو عطلان يا بيه.

كنت أعلم أن الراديو ليس عطلان وأنه يكذب. هو لا يريد أن يسمع الأخبار ليس إلّا. استسلمت وجاء صوت عبد الوهاب ثانية: الميه تروي العطشان.. وتطفي نار... بدا لي ذلك مستفزًّا. نظرتُ إلى السائق في حدّة. نظر إليّ في تراجع بسيط:

ـ هو سعادتك منتظر تسمع إيه في الأخبار؟

ـ يعني مش أحسن من اللي انت مشغّله ده؟ مية إيه؟ وعطشان إيه؟ هيه الحكاية ناقصة؟

ـ كله زي بعضه يا بيه، ماتحطش في بالك.

ما احطش في بالي. هذا ما قاله لي السيد مدير مكتب السيد الدكتور بدير البنهاوي رئيس مجلس إدارة الشركة ومديرها العامّ. أمال أحط فين؟ تقلصت قبضة يدي على الحقيبة السامسونايت. متى كان ذلك؟ من شهر أم أكثر؟ ربما منذ أكثر من ذلك، لأني عندما تشاجرت مع مدير المكتب كان قد مر أكثر من شهر وأنا أحاول مقابلة الدكتور بدير، ثم قابلته بعدها بشهر، ثم حدثت الخناقة الأخرى بعدها بشهر أيضًا، وهناك موضوع البنت الصحفية وذلك أيضًا أخذ وحده نحو شهر، ثم موضوع وقفي عن العمل ثم القضية ثم إعادتي إلى العمل. لا لا. لا بد وأنه قد مر عليّ وقت طويل جدًّا. لا ليس شهرًا أبدًا. ربما سنة أو أكثر. لم أعد أعرف، وماذا يهمّ الوقت؟ هل يُحسَب الوقت هنا بنفس المقاييس التي يُحسَب بها في بقيّة أنحاء العالم؟ أليس ذلك ظلمًا؟ هل إحساسنا نحن بالوقت مثل إحساس الآخرين؟ مثل إحساسهم بالوقت في أمريكا مثلًا؟ ألا يجب أن يقيموا حسابًا للوقت خاصًّا بالمناطق المنكوبة والموبوءة، وآخر للمناطق السليمة وآخر للمناطق البين بين؟ كان التاكسي

متوقفًا في طابور طويل للسيارات في شارع الهرم. نظرت إلى آخر الشارع فلم أبصر نهايته. أطفأ السائق موتور العربة وقال:
ـ يبدو أن الموكب الفرعوني سيمرّ من هنا.
سيمرّ من هنا؟ شخصيًّا؟ سيمر من هنا أمامي؟ ألا يمكن له أن يراني؟ ألا يمكن لي أن أحدّثه ولو لعشر دقائق فقط؟ لا، لعشر ثوانٍ فقط. سأقول له إن لدي الحلّ هنا في هذه الحقيبة، وسيدهش ويطلب مني أن أذهب معه، وسأركب معه في موكبه وأذهب إلى القصر الفرعوني وهناك سأعرض عليه الحل كاملًا، كل شيء، كل الرسومات والتحاليل وكل شيء. وسيقف الدكتور بدير مخذولًا وخجلًا ونادمًا على تجاهله لي وللمجهود الخرافي والعبقرية التي وضعتها في هذا البحث، وسيلومه الفرعون على مافعله ولكنني سأكون أفضل منه وسأقول للفرعون إن الخطأ لم يكن خطأه وإنما خطأ من حوله، وخصوصًا مدير مكتبه الكلب. سأطيح به خارج الشركة تمامًا، وسينبهر الفرعون بعبقرية الحل وبساطته وسيعيّنني مشرفًا على التنفيذ ويعطيني الصلاحيات كافةً لتطبيقه، وربما يعينني رئيسًا للوزراء. سيأخذ الموضوع من عشرة إلى خمسة عشر عامًا ليكتمل التنفيذ. ولن أظل كل هذه المدة رئيسًا للوزراء بالطبع، ولكن يكفيني خمسة أعوام أقيم فيها أسس البرنامج وأضعه على الطريق وبعد ذلك يكفي أن أكون مديرًا للشركة أو مستشارًا للفرعون. حتى لو تغير الفرعون، حتى لو مات وجاء آخر، سأظل أنا مستشارًا لشئون مكافحة العفن. والله لا أطمع في منصب ولا يحزنون، يكفي فقط أن يسمحوا لي بالعمل من أجل القضاء على هذا العفن وهذا التلوث، وهذا منتهى مبغاي. ولا مال أريد ولا جاه ولكن فقط أن يسمحوا لي بأن أنفّذ الحلّ الذي توصلت إليه بعد كل هذه السنوات. بلد بأكمله سيخرج من الظلمات إلى النور. فقط لو أستطيع مقابلته. كان صوت سيارات البوليس آتيًا من بعيد ويعلو. تقدمت عربات الحرس الفرعوني الجيب أولًا ثم مرّ موكب الفرعون في سياراته السوداء المغلقة. صمت الشارع لحظات بعد مروره ثم بدأ في الحركة. أدار السائق مفتاح الكونتاكت فدار الموتور. بدأت السيارة في التحرك ببطء في الطابور.
كانت خناقتي الأولى مع مدير مكتب الدكتور بدير. كنت وقتها قد انتهيت لتوي من البحث وكنت سكران بالنتائج المبهرة التي توصلت إليها، وأردت مقابلته كي أُطلِعه على هذه النتائج وكي نبدأ وضعها موضع التنفيذ، وكان الدكتور بدير دائم الأسفار لا يقعد في مصر سوى أيام قليلة وأحيانًا ساعات قليلة، وكان طول الوقت إمّا في اجتماعات وإما مقابلات وإما في القصر الفرعوني. وذات يوم أفلتت مني أعصابي وصرخت في مدير مكتبه وظللت أزعق فيه. قلت له إنه يعيق العمل ولا يعرف مقتضيات وظيفته وإن أمثاله هم السبب في انتشار العفن. الرجل ذهل وحاول تهدئتي في البداية، ولكن السيل كان قد بلغ الزُّبَى مثلما يقال ولم أعد أملك زمام نفسي. ظللت أزعق فيه وطلّعت عليه إحباطات السنوات الثماني من البحث والإجهاد وقرف السنترالات العطلانة والملل من انتظار عودة الدكتور والوقوف ببابه. كان صوتي يعلو مع الوقت واتهاماتي تتعالى، وقلت له إنه لا بد ضالع في مؤامرة ضدّ مصر أن يمنع شخصًا مثلي من مقابلة مدير الشركة المنوط بها مكافحة العفن، وإني سأقابل الدكتور سأقابله وسأقول له كل ما لا يعرفه من وساخات الشركة وخباياها. لم أكن أعرف شيئًا ذا قيمة عن مثل هذه الخبايا ولكنني كنت مغتاظًا إلى أقصى درجة ووجدت الرجل خائفًا مني فزاد ذلك من هياجي. وصار صراخي مسموعًا في مبنى الشركة بالتحرير بل وخارجه، وبدأ الصحفيون المراسلون القابعون في الصالة الفرعونية في التجمع خارج باب المكتب لسماع ما سأقوله، وما هي إلّا دقائق حتى دخل ثلاثة من حراس الأمن

وحملوني هيلة بيلة وألقوا بي خارج المبنى كله. عدت يومها إلى مكتبي في مبنى الشركة في الجيزة وأنا محطَّم تمامًا. من يومها وأنا ممنوع من دخول المبنى الإداري في التحرير. بعد ذلك حاولت أن أكتب مذكرة بما حدث أو مذكرة بنتائج البحث وأرفعها بالطرق الرسمية إلى إدارة الشركة، ولكن مدير إدارتي كان دائمًا في صحبة الدكتور بدير في مباحثاته بالخارج والداخل، وكان لا بد من توقيعه حتى تصبح المذكرة مذكرة ويمكن توزيعها على بقيّة الإدارات وعلى المدير العامِّ نفسه عندما يعود إلى مكتبه، وظللت طويلًا على هذا الحال. كنت أذهب إلى مكتبي يوميًّا لكنني لم يكن لدي ما أفعله. كنت قد انتهيت من البحث، وكان المفروض أن يتلو ذلك تعميمه على الإدارات ودراسته ثم رفعه إلى الجهات العليا في الدولة إلخ إلخ. لكن شيئًا من ذلك لم يحدث. في الواقع، لم يحدث شيء إطلاقًا. نائب مدير إدارتي رفض التوقيع على أي شيء حتى يعود مدير الإدارة. وكان واضحًا أن لديه تعليمات بذلك من مدير مكتب الدكتور بدير فلم أحاول معه كثيرًا. كنت قد أيقنت أنه لا يمكن فعل أي شيء حتى يعود مدير إدارتي أو الدكتور بدير أو كلاهما، وأقلعت عن المحاولات الفاشلة للاتصال تليفونيًّا بمقرهم شبه الدائم بباريس حيث تستمر المفاوضات في جولاتها. أي لم يعد لدَيَّ ما أفعله. صرت أذهب إلى المكتب بلا هدف سوى التوقيع بالحضور والانصراف والتأكد من أن مدير إدارتي لم يأتِ بعد. كان المكتب كئيبًا بلا عمل، وبدأت أكتشف المكتب لأول مرة باعتباره مكتبًا، باعتباره غرفة وأثاثًا ومفروشات وتجهيزات. كان ذلك في الشتاء الماضي، واكتشفت أن المكتب كئيب للغاية. في الشتاء كان البرد قارسًا في الأيام البرد لدرجة أني لم أكن أستطيع إخراج يدي من جيبي، وفي الصيف كان حارًّا لدرجة خانقة. كان الأثاث معدنيًّا رمادي اللون والأرض عارية بلا أي شيء يغطي قبحها. واستغربت كيف أمضيت ثماني سنوات هنا دون أن أتبرم أو أشكو أو حتى ألاحظ كل هذا القبح. كنت أذهب في الصباح وأجلس على مكتبي. أطلب شايًا من صلاح وأشربه. ثم أظل جالسًا على المكتب أقرأ الصحف. عند الظهر أكون قد أنهيت الجرائد كلها بالوفيات وبالكلمات المتقاطعة، ثم أظل من الظهيرة أنتظر حتى تصبح الساعة الثالثة فأعود إلى المنزل، وكان المشوار من ميدان الجيزة إلى منزلي في أول الهرم أسوأ من الانتظار ثلاث ساعات في المكتب.

بعد عدة أيام خفت على جهاز الكمبيوتر من الركنة بلا عمل. أو بالأدق خفت على المعلومات الموجودة بالداخل أن تنمحي لأي سبب بالصدفة أو بالعمد، ففتحت الجهاز ووضعت له كلمة سر جديدة، وبدلًا من أن أغلقه قلت أرى ما يوجد من ملفات أخرى غير تلك التي كنت أعمل عليها خلال السنوات الماضية، وفي أثناء التفقد وجدت ملفًّا كاملًا يحتوي على ألعاب. دخلت فيه من باب التسلية لأرى ماذا يحتوي ومن الذي وضعه. بدأت أجرب بعض الألعاب. كان موظفون آخرون من إدارات أخرى هم الذين وضعوها، ولكن بما أن الشبكة التي نعمل عليها جميعًا واحدة كان يمكنني الدخول عليها من عندي. دخلت على لعبة اسمها الديجر فوجدت أسماء كثيرة أعرفها مسجلة على قائمة الأرقام القياسية. بدأت ألعب، وكانت في الحقيقة مسلّية للغاية. في أول يوم كان أدائي ضعيفا جدًّا ولا يقارن إطلاقًا بالأرقام الموجودة، ولكن بعد نحو أسبوعين من اللعب المتواصل من التاسعة صباحًا وحتى الثالثة بعد الظهر أصبحت نتائجي جيِّدة، وفي الأسبوع الثالث دخل اسمي لأول مرة في قائمة الأرقام القياسية. كان الأخير، وفي اليوم التالي كان قد اختفى وظهر اسم شخص آخر مكانه: أشرف إسماعيل. كنت أعرف شخصًا بهذا الاسم هو نائب مدير إدارة المستخدمين ولكني استبعدت أن يكون يشغل وقته في هذه التفاهات، وخلال الأسبوع الذي تلا ذلك كانت المباراة الفرعونية بيني وبين أشرف هذا على المراكز الأخيرة. ثم سبقته نهائيًّا

بعدها بنحو أسبوعين، وبدأت أنافس اسمًا آخر: إيهاب أبو حديد. لا أعرف من هو ولكننا ظللنا نتنافس مدة أطول من أن أتذكرها، وذات يوم فوجئت برجل في الخمسين من عمره يدخل عليَّ المكتب وهو محمرّ الوجه مهتاج:

ـ يا ابني ارحمني أنا قد والدك!

كان ذلك هو إيهاب أبو حديد مدير إدارة البيوأوكسيدز. طبعًا تعارفنا وشربنا شايًا وأصبحنا نتقابل دائمًا على شاشة الكمبيوتر، ومع الوقت اكتشفت بقيّة أطراف اللعبة. كان كل الموظفين مشتركين في لعبة أو أخرى: كان هناك مجموعة الديجر، ومجموعة التترس، ومجموعة برنس، ومجموعة سبيس إنفيدرز، ومجموعة الباراتروبرز، إلخ إلخ. وأصبح الوقت يمر سريعًا جدًّا في الشركة. وأصبح لي أصدقاء كثيرون، إلّا أنني لم أستطع أبدًا كتابة المذكرة التي أريد كتابتها أو مقابلة الدكتور بدير، وفي كل مرة أحاول فيها فتح الموضوع مع أحد من أصدقائي الجدد، يتجهم وجهه ويغيِّر الموضوع. كانوا أصدقائي بشرط أن أظل داخل حدود اللعب، وأن لا أتجاوزها.

انكشف الطريق أمام التاكسي الذي انطلق في قلب شارع الهرم. مر سريعًا أمام مبنى المحافظة المحصن بالنوافير التي تداري أعمدة العفن المتصاعد من المبنى. مرّ أمام مبنى الريان تحت الحراسة الأبدية. مرّ أمام ليسيه الهرم المغلق منذ زمن. كان التاكسي يجري في الشارع مسرعًا، وكان عبد الوهاب يغنّي، وكانت الشمس ساطعة. عاد مدير إدارتي، وكنت أول من دخلوا إليه في الصباح. قلت له: حمد الله على السلامة. ثم رويت له كل شيء بالتفصيل. ظللت في مكتبه قرابة ثلاث ساعات وكان معي صورة من كل شيء. عرضت عليه نتائج البحث بالتحاليل والرسومات والأرقام والكمبيوتر والإحصاءات والتجارب وكل شيء، وقصصت عليه قصة مدير مكتب الدكتور بدير وقصص السنترالات والتليفونات وكل شيء، حتى الأوقات التي كنت أجيء فيها إلى المكتب ولا أجد ما أفعله «سوى اللعب على الكمبيوتر». كان يستمع إليّ طوال ثلاث الساعات في صبر وانتباه شديدَين.

ـ والآن ما العمل يا سيادة المدير؟ هل تحدث الدكتور بدير أم أقابله أنا أم نرسل مذكرة أم ماذا؟

صمت المدير لحظات ثم قال:

ـ دعني أفكر قليلًا في أنسب الوسائل. أنا يادوبك رجعت اليوم. دعني أقلب الموضوع في رأسي كام يوم ثم أجسّ نبض الدكتور بدير لكي يكون تصرفنا فعّالا. نحن لا نريد شوشرة من أجل الشوشرة، دع لي هذا الموضوع كام يوم كده.

في اجتماع الإدارة الذي تلا لم تأتِ سيرة هذه المسألة، وإنما دار الاجتماع حول أهم الأحداث التي وقعت بالإدارة في أثناء غياب المدير. كان كل باحث يعرض ملخصًا لما قام به خلال الفترة المنقضية. ولما جاء الدور عليّ قلت باختصار إنى أنهيت البحث الذي كنت مكلَّفًا به والذي استغرق السنوات السبع أو الثماني الماضية لم أعد أذكر، وسلّمت للمدير نسخة من كل شيء على شرائط ممغنطة. لم أكُن أحب الحديث طويلًا في هذه الاجتماعات. كنا نحو عشرة باحثين وباحثات. فإذا تحدث كل واحد ربع ساعة بالإضافة إلى المدير ونائبه فمعنى ذلك ثلاث ساعات كاملة اجتماعًا وهذا ما لا أطيقه. لكن بعض الزملاء، وبخاصة الأكبر سنًّا، لم يكونوا يشاطرونني هذا الرأي. كان الدكتور فاروق يتحدث على الأقل ثلاثة أرباع الساعة. كان قد حصل على الدكتوراه من منحة دراسية قديمة جدًّا مما كان يُعرف بالاتحاد السوفيتي، ولكن لسبب من الأسباب فإنه لم يحصل على أي منصب يتناسب ومؤهله، بل ظل مجرد باحث بالإدارة. وكان من الواضح أن ذلك يقتله كل يوم خصوصًا وأن نائب المدير لم يكن حاصلًا على دكتوراه. ربما لهذا السبب

كان يتعمد الإطالة في الحديث في كل الاجتماعات حتى لو لم يكن لديه ما يقوله. كان يتحدث ببطء، ويفكر في وسط العبارة، ويبدأ عبارات ولا يتمها، ويسرح لحظات، ويقص قصصًا لا علاقة لها بموضوع الاجتماع ولا ببقية حديثه، ولكنه في كل الأحوال كان يشغل الوقت الذي قرّر أن يشغله، وكان الباقون ينصرفون إلى أشياء أخرى. نائب المدير يستأذن ثم يختفي نصف ساعة خارج غرفة الاجتماعات ثم يعود قرب نهاية حديث الرجل. المدير يقرأ في أوراق أمامه أو حتى في جريدة، ونحن؛ صغار الباحثين، نتحمل عبء السمع والابتسام. يومها كان يتحدث عن أشباه الموصِّلات، وكان يتعمد أن يقول اسمها بالإنجليزية: السيميكوندكتورز، ولا أدري ما الذي جرّه لذلك، وأن أمريكا تحتكر إنتاج السيميكوندكتورز وتحرّم على اليابان صنعها، وأن أمريكا أوضحت لليابان أنها لو صنعت السيميكوندكتورز فإنها ستعلن عليها الحرب. كدت أن يُغشَى عليَّ عند سماعي لهذا الكلام الفارغ. أيّ حرب تلك التي ستعلنها أمريكا على اليابان؟ وما أدخل أشباه الموصِّلات في هذا الهراء؟ ثم إن المنتج الرئيسي لأشباه الموصلات هي الشركات اليابانية، وما علاقتنا نحن بكل ذلك؟ وكيف حصل هذا الفسل على الدكتوراه؟ أيّ ريح فاسدة ألقت به إلى إدارة البحوث؟ وما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟ كان زملائي يبتسمون للرجل في يأس، وكان الآخرون منصرفين عنه، وكنت أرغب حقيقة في القفز من هذا الدور الحادي عشر إلى الأرض والانغماس في قلب العفن. العفن ها هنا، في هذه الغرفة الأنيقة، العفن ينبع من هنا، من السيميكوندكتورز. لم أستطع الاستمرار في الاجتماع. تقهقرت بمقعدي إلى الخلف واستأذنت وخرجت. عدت إلى مكتبي مسرعًا فارتطمت بصلاح عند الباب.

- اعمل لي شاي والنبي.
- دلوقت يا بيه؟! (يقصد: والاجتماع؟).
- أيوه دلوقت (أقصد: وانت ما لك؟).

دخلت إلى المكتب، وبحركة آلية فتحت زرار الكمبيوتر وبدأت ألعب ديجر. لم أُفِقْ إلّا والساعة تشير إلى الرابعة. لأول مرة منذ نهاية البحث أتأخر على زوجتي. في هذا اليوم حطّمت الرقم القياسي ووضعت اسمي أعلى قائمة الشرف. هبطت السلالم مسرعًا. كان المصعد يتوقف عن العمل بعد الثالثة ظهرًا. خرجت من مبنى الشركة واتجهت إلى ميدان الجيزة. أشرت إلى تاكسي وركبت. كان شارع الهرم قد عاد إلى زحامه. التاكسي يقف مرة أخرى في طابور السيارات. عبد الوهاب ما زال يغني: يا وابور قول لي رايح على فين، يا وابور قول لي وواخدني لمين، يا وابور قول لي يا وابور قول لي. السائق ينظر إلى الأمام ولكن ليس حقيقة. رأسه متجه إلى الأمام ولكنه لا ينظر. نظرت في ساعتي: كانت تشير إلى الثالثة ظهرًا. باقٍ على موعدي ساعة ونصف. التاكسي متوقف أمام كازينو الليل. أمام نقطة شرطة الوسط. باقٍ على الأقل ساعة بهذا المعدل حتى أصل إلى ميناهاوس. حيث سأقابل السيد مينا شخصيًّا. مر يوم، ويومان، وعشرة أيام وأكثر، ولم يحدث أي شيء، ثم سافر مدير الإدارة في جولة مفاوضات جديدة. ما كنت أعجب منه حقيقة هو: على ماذا يتفاوضون إذا كانوا غير مُلِمّين بالموضوع أساسًا؟ فيمَ التفاوض؟ وعلى ماذا؟ كانت مفاوضات المنكوبين عملية شاقّة ومعقدة ويدخل فيها أكثر من مئة وأربعين دولة بالإضافة إلى مئات الشركات وعدد لا بأس به من البيوت الماليّة والبنوك، وكانت في الإدارة وحدة لتحليل هذه المفاوضات وتحديد نماذج للمواقف المصرية في هذه المفاوضات ولكن الباحث القائم عليها كان زي حالاتي بالضبط. يعمل ويجهز النماذج ويعرضها على مدير الإدارة في اللحظات التي يتاح له رؤيته فيها أو في أثناء الاجتماعات ثم لا شيء، وذات يوم وأنا ألعب الديجر وجدت اسمه في أسفل

القائمة. كان قد دخل في اللعبة حديثًا. في يوم من الأيام التي تلت ذلك، عاد مدير الإدارة فدخلت عليه دخلة مشابهة لتلك التي دخلتها على مدير مكتب الدكتور بدير، وبعد عدة محاولات من جانبي لدفعه للتحرك أيقنت أنه أيضًا لن يفعل أي شيء ولن يتحرك. ولم أفهم معنى ذلك. هذا هو مدير إدارة البحوث في الشركة المكلفة بإدارة مكافحة العفن والتلوث يرفض أن يرفع إلى مدير الشركة تقريرًا بالبحث الذي يُفترض أنه سيقدِّم حلًّا جذريًّا للمشكلة برمتها. قلت لنفسي لعله خائف على منصبه، لعله يغار مني، فقلتها له بصراحة: إني مستعد أن أضع اسمه هو على البحث بالكامل وأن أكون أنا مجرد مشرف على التنفيذ. كان ما يهمني حقيقة هو البدء في التنفيذ وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذا البلد المسكين، لكنه هاج لما سمع ذلك وبدأ في مهاجمتي: «وانت فاكر نفسك إيه؟ وانت حتة عيل، هو انت اللي جبت التايهة؟ يلّا بلاش كلام فارغ»، إلى آخر القائمة المعروفة من حديث المدير لمرءوسيه، ولما أدركت أن لا فائدة في هذا الاتجاه لم يبقَ أمامي سوى الاحتمال الآخر وهو أنه ضالع في المؤامرة مع مدير مكتب الدكتور بدير. ولم أخَف. قلتها له عالية كالصاعقة في وسط الإدارة. وهبدت الكرسي في الكلوب وخرجت في وسط الإدارة وأنا أصرخ كالمجانين على بقيّة الباحثين أن يأتوا ويتفرجوا على السيد مدير الإدارة. وكانت مسخرة لم يحدث مثلها في الشركة من قبل، وانتهى الموضوع مثلما انتهى سابقه بحملي إلى خارج مبنى الشركة، وطبعًا في اليوم التالي عندما جئت كالبريء في الصباح أخبرني موظفو الأمن في أدب شديد أني ممنوع من الدخول وأنه تم نقلي إلى إدارة الاستحقاقات. حينئذ أدركت أن المواجهة مع قوى الشر في الشركة أصبحت حاسمة وبلا رجعة. رفضت استلام أمر النقل وعدت إلى المنزل. دهشت زوجتي عندما رأتني عائدًا مبكرًا هكذا. جلست على الكمبيوتر وأخذت نسخة من البحث كله على شرائط أخرى وخرجت. لم أكن أعلم أين يمكن أن أذهب. لم يبقَ أمامي سوى الدكتور بدير شخصيًّا، وأنا لا أعلم أين هو ولا متى يأتي. أخذت تاكسي وذهبت إلى مدينة نصر حيث يسكن. لم أجد الحراس عند الباب فعلمت أنه غير موجود. وظللت كل يوم أنزل في الصباح وأتوجه إلى منزله في مدينة نصر، ثم إلى مبنى الشركة في التحرير حيث أنظر من بين السور لأرى ما إذا كانت سيارته واقفة أم لا، ثم إلى مبنى مجلس الوزراء لأسأل ما إذا كان بالداخل أم لا ثم إلى مجلس الشعب، ثم أعود إلى المنزل وأكرر هذه الجولة في المساء. كانت إدارة المستخدمين قد أرسلت إليَّ إنذارًا بالفصل، وكان أشرف إسماعيل هو الذي وقّع الإنذار. لا بد أنه كان سعيدًا بالتخلص من منافسه العتيد في الديجر. أخذت الإنذار إلى محامٍ صديق ورفعت قضية على الشركة، وكنت في هذه الأثناء أواصل رحلاتي المكوكية يوميًّا بحثًا عن الدكتور بدير. كم من الوقت مر في ذلك؟ بأي مقياس؟ بمقياسي أنا؟ ربما أسبوع. بمقياس المناطق المنكوبة؟ ربما ألف سنة. بمقياس زوجتي؟ أكثر من اللازم بكثير. ثم وجدته. بمنتهى البساطة. وجدته ذات مساء في مبنى الشركة بالتحرير. كانت الساعة تقارب العاشرة مساء، وكنت عائدًا لتوِّي من منزله حيث لم أجده، مررت على مبنى الشركة في التحرير فوجدت سيارته داخل المبنى واقفة وحدها، كأنها معجزة. عند الباب لم يكن هناك سوى الحارس الليلي وحراس الدكتور بدير الشخصيين. لم أكن أعرف أيًّا منهم وأشكّ أن أيًّا منهم يعرفني. دخلت باتجاه مكتب الأمن في هدوء. كانت حقيبتي السامسونايت التي لم تعد تفارقني ولا أفارقها في يدي، وكنت أرتدي بدلتي وأبدو كأي من موظفي الشركة. سألت عن مدير مكتب الدكتور بدير فقالوا لي إنه غير موجود. قلت: والدكتور؟ قالوا: موجود. قلت: يجب أن أقابله فمعي له مستندات هامّة. وأخرجت بطاقتي الوظيفية في مغامرة محسوبة. نظر الحارس فيها ثم اتصل بالتليفون الداخلي ثم قال لي في بساطة متناهية:

ـ اتفضل، الدكتور في مكتبه.
كأن كل شيء لم يكن له فائدة. كأن خناقاتي وصراعاتي ورحلاتي اليومية كانت سدى. ها أنا ذا أدخل إلى مكتب الدكتور بدير وفي يدي البحث والوثائق. كأن ذلك كان أسهل شيء في الوجود. فيمَ إذن كان كل ذلك؟ فيمَ كان فقداني لعملي وتشريدي؟ على العموم كله سينتهي. كل ذلك سينتهي. سأدخل الآن عليه. من هذه الثغرة التي لم يستطع المتآمرون سدها: الحظ، أو النصيب، أو القدر. سأدخل الآن وسأنسف المؤامرة وسيعود كل شيء إلى مجراه، وأحسن. سأقابل أهمّ رجل في مصر الآن: الشخص الذي بيده كل أجهزة وسياسات مقاومة العفن والتلوث، منتج الأقنعة، ومصمِّم الحلول والاستراتيجيات، والمشرف على تنفيذها في كل القطاعات، والمستشار الأهمّ للفرعون، والمفاوض الأول لمصر في كل مفاوضات المنكوبين. الآن، على بعد خطوات. دخلت المبنى. وضعت قدمي على السلم العريض. غاصت قدماي في السجاد الأحمر الفخم. رائحة مبنى التحرير المميزة وأبهة القصور الملكية القديمة بأسقفها العالية المزخرفة. حتى كل سنوات العفن التي لا تُعَدّ لم تفلح في القضاء على رونقها. تقدمت عبر الصالونات إلى مكتبه في آخر المبنى. ابتسمَت لي سكرتيرة وقور الحسن والشقرة. أعطيتها بطاقتي الوظيفية فابتسمت وقالت:
ـ حظك حلو، الدكتور خلص بدري النهاردة وكان يادوبك ماشي.
قلت:
ـ بالتأكيد حظي حلو.
دخلت وغابت ثانيتين وعادت في الهدوء السائد في ليل المبنى:
ـ اتفضل.
طرقت على الباب طرقة خفيفة ودفعته ودخلت...
كانت السيارة تنطلق في طريقها. وبدأت قمّة الهرم الأكبر تلوح من بعيد حين تسمح المباني العالية لي بالرؤية. كانت تلك هي اللحظات الوحيدة التي استمتعت فيها بصوت عبد الوهاب. صوت موتور السيارة خفت مع الحركة، واختفى ضجيج السيارات الأخرى التي لم تعد موجودة. كان التاكسي منطلقًا في فضاء شارع الهرم نحو الهرم، وكان عبد الوهاب يغني «مضناك»، وكانت الشمس تخفت من حدّتها. كانت المقابلة مع الدكتور بدير قصيرة. وخرجت منها مثل الخيل بعد السبق. كان وجهه أبيض وطيبًا وتبعث ابتسامته على الثقة. قصير القامة، ممتلئ بعض الشيء. كان في منتصف الأربعينيات. استمع إليّ قليلًا ثم قاطعني:
ـ يعني قل لي ماذا تريد بالضبط؟ الحلّ في الحقيبة، ومؤامرة في الشركة، وعودتك إلى العمل. سآخذ منك الحقيبة بالحل وأدرسه بنفسي. إذا اتضح أن الموضوع جدّيّ سأفتح تحقيقًا فوريًّا في الموضوع ولن يكون فيه أي مجاملة لأي شخص أيًّا كانت وظيفته أو درجته، وإن كان ذلك كذلك ستعود فورًا إلى العمل.
شكرته وقمت منصرفًا. قام معي وأوصلني إلى الباب وصافحني بحرارة وهو يشكرني على همتي وإخلاصي...
ثم لم يحدث أي شيء.
ظللت بالمنزل لفترة، كانت الوحيدة في الأزمنة الأخيرة التي لم أكن أرتحل فيها يوميًّا عبر أرجاء المدينة، أنتظر. وكنت قد نقلت نسخة من الديجر على كمبيوتر المنزل لأني أدمنتها. فكنت أقوم الصبح في السابعة والنصف كالمعتاد، أتناول إفطاري ثم أتوجه إلى الديجر وأظل ألعب حتى الثالثة بعد الظهر حيث أعود -نفسيًّا- إلى المنزل. في أثناء هذه الفترة كنت أغلق الباب على نفسي

في غرفتي منكبًّا على الكمبيوتر ألعب، وكانت زوجتي قد تأكد شعورها بأني فقدت عقلي كله أو على الأقل جزءًا هامًّا منه، فكانت تتركني على أساس أني أعود شخصًا طبيعيًّا اعتبارًا من الثالثة.
لم يتصل بي أحد، ولم يحدث أي شيء لا هنا ولا في أي مكان آخر.
ولم أكن أصدق.
لم أستطع أن أصدق.
هل الدكتور بدير ضالع هو الآخر في المؤامرة؟
وبعد تردُّد وحيرة، وبعد مشاورات مع زوجتي التي قصصت عليها القصة بالكامل، ومشاورات مع المحامي، اتصلت بإحدى المجلّات شبه المعارضة (لم أجسر على الاتصال بإحدى صحف المعارضة، كان محرروها يسبِّبون لي حساسية)، فأرسلوا إليّ صحفية شابة اسمها سحر عيسى.
كانت الساعة الرابعة وما زال الطريق إلى الهرم طويلًا. عند الأريزونا توقف التاكسي مرة أخرى في طابور طويل للسيارات. باقٍ نصف ساعة فقط على موعدي مع السيد مينا. اللعنة على هذا الزحام!

* * *

حرَّك الكاتب عينيه في إرهاق. مشى قليلًا في الصالة الفسيحة المطفأة الأنوار. كانت عظام جسمه تقرقع وتفرط بعض الجير وهو يسير على أرض المتحف. نظر إلى البرديات المتراصة في الصالة وإلى التحف الصغيرة الموضوعة بعناية فرنسية في صناديقها الزجاجية.
ما الذي أتى بهذه البرديات إلى هنا؟ ومن الذي مزَّقها هكذا؟ ومن الذي وضعها بهذا الترتيب الغريب غير المفهوم؟ وأين بقيتها؟ هذا كتاب الموتى ولا ريب ولكن أين بقيته؟ كيف مكثت كل هذه المدة في هذا المكان؟ وهؤلاء الناس من كل صنف وشكل ولون يأتون وينظرون إليّ ويلفون حولي. أنا الكاتب المصري أوضع هكذا كتمثال في متحف كتحفة للزوّار؟ أنا كاتب الفرعون وعقله المفكّر أُلقَى آلاف السنين في هذه الأراضي الغريبة تلقفني يد إلى يد؟ من اللص المصري الأول في الجبّانة الملكية إلى الجريجي الذي عبر بي البحر إلى الفرنسي العنجهي الذي استولى عليّ وأدخلني بلاده وأدخل بلاده فيّ؟ ماذا أفعل أنا تحت هذه السماء الداكنة الغيم؟ أين أرضي وشمسي المشرقة ونيلي الفياض؟ أين أهرامي ومعابدي ونقوشي وكتاباتي التي تملأ الوادي؟ أين حكمي وحكمتي التي تسير في الأرض من بعدي تهدي الضالَّ وتنير السبيل؟ أين فرعوني الإله يقف أمامي مبجِّلًا رجاحة عقلي ومحتاجًا فصاحتي وشاكرًا حنكتي؟ أنا حور الكاتب المصري الذي يكتب الفرنسيون الجهلة تحتي أني كنت كاتبًا بسيطًا في بلاط الفرعون! أنا العقل المفكّر والمدبّر والحاكم الحقيقي لهذا الوادي بقمحه وسنابله وعمارته وبكل ما فيه. أنا أُحبَس هكذا في هذه الغرفة الحقيرة في هذه المدينة الغريبة لينظر الأجانب إليّ ويدرسوني؟ ماذا كانت باريس هذه حين كنت أسير على قدمَيّ؟ ما باريس هذه حتى تستولي عليّ وتحبسني في إسارها؟
كان يسير في غرفته في المتحف وعظامه تقرقع والجير يتساقط منها. ظلّ يروح ويجيء حتى شارف الفجر على الدخول. كان الجير في قدميه ينحلّ ويتساقط، وعند شروق الشمس كانت ساقاه قد شُلّتا تمامًا وعجز عن السير. جلس حور على الأرض ينظر إلى الباب في حنق. كان هناك، جالسًا، حانقًا، في انتظار انفتاح الباب كي يخرج. وكان كلما رأى انحلال ساقيه وعجزه عن المشي زاد حنقه أكثر، وعندما انفتح الباب كان الحارس أول من رآه. ظنه وقع من مكانه وانتابه هلع، ولمّا أدرك أنه حيّ زاد هلعه وظنّ بنفسه الظنون، ولما انتهى من القصة المعتادة من الخوف والذهول وعدم التصديق والدهشة وخلافه، ووجد حور يحدّثه بفرنسية مفهومة، تعلمها بالطبع من طول مكوثه بالمتحف مثلما تعلَّم الإنجليزية من استماعه للمرشدين، أدرك أنه أمام ظاهرة فريدة.

* * *

الجوع يعصف ببطنه. اهتزاز القطار يزيد من شعوره بالضعف والاحتياج إلى لقمة تقيم أوده. القطار ينهب في الأرض في شرق القاهرة. عبد العال ينظر من الشباك ولا يرى. مليون موضوع وسؤال في رأسه لكنه لا يفكر. المناظر تجري أمام عينيه والأفكار تجري في رأسه لكنه لا يرى شيئًا ولا يفكر في شيء. إلى أين يتجه هذا القطار يا عبد العال؟ إلى حلوان أم إلى المرج؟ واللهِ لم أعُد أدري. كم مرّ عليّ هنا؟ كم مرّ عليّ هناك في الصعيد؟ قبل الجفاف أم بعده؟ كم مرّ عليّ في حلوان؟ قبل الحرب أم الآن؟ كيف الخروج من هذا القطار؟ وفيمَ الخروج منه؟ وإلى أين أذهب؟ أظلمت الدنيا ثانية أو عاشرًا أو أكثر. دخل المترو في جسم النفق للمرة المليون وعبد العال اعتاد هذه المسألة. لكنه لا يستطيع الهبوط. «كل مرة أحاول فيها الخروج أجد هذه الحواجز الحديد اللعينة. سيعرفون أن ليس معي تذكرة، وسيمسكونني وأروح في سين وجيم. وانت ماتعرفش مباحث المواصلات دول يا عبد العال، دول ما يعرفوش ربنا. طيب. خلّيني هنا في القطر لغاية ما

ربك يفرجها. لو خرجت، لا بد وسأدفع ثمن التذكرة وهو كل ما معي، هذا غير البهدلة والمبيت في الحبس، ومكن يحكموا عليّ بغرامة أكبر من قيمة التذكرة وطبعًا لن أستطيع دفعها لأنه مامعاييش. يعني آخر المطاف في الحبس. الله يخرب بيتك يا شاويش يا من أدخلتني هنا. والحلّ؟». نظر عبد العال حوله لعله يجد حلًّا في وجوه مَن حوله. لا شيء مثل الجوع في قرص البطون. لا وألف لا، لست أنا من يمدّ يده ويستعطي أحدًا. الجوع يقرص بطنه. المرأة الجالسة قبالته فرشت بؤجتها على الأرض وأخرجت سميطًا وجُبنًا. مرّت على الركاب جميعهم ووزعت على كل الجالسين سميطة وقطعة جبن نستو. «يا الله على الشهامة». وضعت السميطة في حجره وأتبعتها بقطعة الجبن. شكرها عبد العال بصوته الجهوري ورفع يده شاكرًا. في لقمتين كانت السميطة في جوفه متبوعة بقطعة الجبن، وهو يمضغ الطعام استغرب الناسَ الجالسين هكذا كأنهم حجر. على حِجْر كل منهم السميطة والجبن ولا شكرا ولا غيره: «والله الناس بتوع مصر دول ليهم حاجات غريبة. قاعدين كده من غير حتى ما يشكروا الست الطيبة دي! إلّا ما فيه واحد حتى قالها لأ مش عايز!». لحظات ومرت السيدة مرة أخرى تجمع السميط والجبن. الركاب جالسون في صمت أيضًا: «والله معاها حق دول ما يستاهلوا النعمة». جاءت أمامه ووقفت. نظر إليها مبتسمًا وهو ما زال يمضغ. ظلت واقفة تنظر إليه. ارتبك:

- متشكرين قوي يا ست.
- العفو يا بلدينا، إيدك.
- ما لها إيدي؟
- إيدك يا خويا بلاش ملابطة.
- ما لها إيدي يا ولية؟
- إيدك يا خويا على الربع جنيه.
- ربع جنيه بتاع إيه يا ست؟
- نعم؟ هو انت منهم؟ إيدك يا خويا على الربع جنيه تمن الهباب اللي طفحته. تكونش فاكرني فاتحاه سبيل ولّا إيه؟

انتهى الموضوع. فهم عبد العال مرة واحدة، ودون كلمة أخرج من سيّالته كيس النقود وعدّ لها خمسة شلنات جديدة خطفتها ومضت تلمّ بقيّة السميط. طعم السميط مرّر في حلقه. «يا نهارك أسود يا عبد العال! كده كِمْلِتْ وبقَتْ خَلّ». وضع عبد العال رأسه بين كفيه والقطار يمضي. محطات خلف محطات. لا أمل الآن في الخروج: «وإلى أين أخرج؟ لا عمل، ولا مأوى في هذه المدينة الكافرة، ولا حتى ثمن تذكرة الدرجة الثالثة للعودة إلى البلد. سأظلّ في هذا القطار إلى الأبد».

* * *

أنا الكاتب المصري. أنا حور، وقصّتي معقّدة وصعبة التصديق. ولكن ينبغي عليّ أن أقصَّها وأن أنقلها إلى كل من يعرف القراءة في وادي النيل. هذا كل ما بقي لي من أمل، وأنا أكتب في أوراقي الصغيرة على مكتبي الخشب الصغير في حجرتي الضئيلة بباريس. من النافذة الكبيرة (أكبر شيء في هذه الغرفة) تمتد أمامي أشجار ضخمة بطول بولفار مونبارناس وحتى حديقة اللوكسمبورج التي تبدو مبانيها في الأفق. الغرفة لا تكاد تتّسع إلّا لسرير وهذا المكتب وحوض صغير. دورة المياه في أسفل المبنى. هذه ما يسمّيه الفرنسيون بغرفة الخادمة. السقف فوق رأسي تمامًا هرميًّا وأعرف أنه مطليّ من الخارج بأسود غامق. وأنا أكتب بالفرنسية؛ اللغة الوحيدة التي صرت أعرفها غير المصرية القديمة. وسأعطي هذه الأوراق في المساء لشابّ مصري حديث اسمه فخر الدين ليترجمها إلى العربية. هذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع توصيل قصتي بها إلى القارئ المصري الحديث، وأنا أعتذر مقدمًا عن سوء اللغة أو غرابتها وأعتذر عن عدم قدرتي على الكتابة باللغة التي صار المصريون يستخدمونها الآن لأني لا أعرفها ولم أعرفها قط ولم أسمعها سوى مرات قلائل من القلّة الناطقة بالعربية التي كانت تزور المتحف أيام احتجازي هناك. أنا آسف حقيقة. آسف لعدم قدرتي على استخدامها وآسف لعدم قدرتك على فهم المصرية التي هي - أو التي كانت - لغتك. حتى هذا الشابّ المثقف فخر الدين طالب الدكتوراه بالسربون لا يعرفها. في البداية صُعقتُ لمّا علمت ذلك، ثم صارت الصعقة ذهولًا، ثم دهشة ثم استغرابًا، ثم صارت الآن أسفًا ومرارة أبتلعها كلما هممت بالكلام. لا أعرف سوى لغتين: لغة قديمة صارت تحفة ولا فائدة عملية فيها، ولغة أخرى أجنبية عني وعنك وهي الوحيدة أداة الاتصال بيننا ولا تفهمها أنت. ومن ثَمَّ صار لزامًا عليّ أنا الكاتب أن أجد وسيطًا ليترجم لك أنت الذي كنت تقرأ حكمتي وتبحث عنها في كل موضع لتتبعها، ليترجم لك أنت كلماتي كي تكون مفهومة عندك! ما النفع فيّ؟ أي انحطاط وصل إليه حال الدنيا وأنا معه! وهكذا تتطور قصتي منذ خروجي من أسري الفرنسي. أقصد من أسري في المتحف الفرنسي. ليس أمامي الكثير من الوقت لأكتب لك القصة فسيتعين عليّ أن أكون على سَفَر ابتداءً من هذه الليلة، والإله وحده يعلم متى تنتهي رحلتي إن كانت ستنتهي. لذا سيجب عليّ أن أحكي كل شيء الليلة وقبل أن أرحل وتختفي القصة تمامًا إذا اختفيت. أنا حور الكاتب المصري، أفقت من غيبوبة طويلة قضيتها في اللوفر أسير حوائطه ولوحاته، ولمّا أفقت قررت أن أخرج لكن ساقَيّ كانتا قد عجزتا عن الحركة من طول جلستي القرفصاء، وبمعاونة الحارس الفرنسي في المتحف خرجت وهربت. لم أكن أعرف أين أذهب ولم أكن أفهم شيئًا من هذه الحياة الحديثة المعقدة، ووجدت من المستحيل عليَّ أن أخطو خطوة واحدة دون معونة. ليس فقط لغرابة ملابسي ولا لعدم ملاءمتها لهذا الجوّ الغريب البرودة، وإنما لمليون ألف سبب آخر أبسطها عدم امتلاكي للنقود التي تسيّر الحياة كلها هنا. في بداية الأمر حاولت أن أقنع محدِّثي بأنى أنا الكاتب المصري وبمكانتي في أرجاء الوادي، ولكن كل ذلك لم يكن له نفع مع هؤلاء الناس. أبسط الأسباب عجزي عن التعامل مع الأشياء: كيف أحصل على الطعام؟ كيف أذهب من مكان إلى آخر في هذه العربات الحديدية فائقة السرعة؟ كيف أجد ما أريد؟ كيف أجد الأماكن... كل شيء. كان الاعتماد على شخص من هنا أمرًا لا غَنَاءَ عنه. وبالطبع كان الحارس الذي ساعدني على الهرب هو المرشَّح الأمثل لهذه المهمة. ولنقف قليلًا عند هذا الحارس. اسمه جان مثل آلاف أُخَر. واسم عائلته أعقد من أن أتذكره: روبينوه أو ريينوه أو روبلوه... باختصارٍ شيء من هذا القبيل. لا يهم اسم عائلته لأنني سأدعوه دائمًا جان. لماذا أخرجني جان من المتحف؟ سألت نفسي هذا السؤال ثم

سألته. وأعتقد أنه في البداية فوجئ بحقيقة عودتي إلى الحياة وكان يظنني مجرد حجر ينقلونني من مكان إلى مكان دون إرادة مني. قليل من الخوف، وقليل من الإعجاب بقدرتي على الحياة ومقاومة كل هذا الموت الطويل، وقليل من الرغبة في المغامرة وكسر الملل في حياته (علمت منه أنه يعمل في وظيفته هذه نفس الساعات كل مطلع شمس من قبل أن ينجب ابنه الذي صار الآن رجلا!)، وكثير من الرغبة في استطلاع هذا الكائن الغريب والمشاركة في صنع هذا الحدث الخارق. أراد أن يدخل التاريخ ويخلد اسمه باعتباره ذلك الذي ساعدني على العودة إلى الحياة. مسكين، لم يكن يعلم أني سأنسى اسمه فور سماعي له وسيدخل في ألف اسم فرنسي أسمعه كل يوم منذ جئت إلى هنا. ربما أراد أيضًا، الإله وحده يعلم الحقيقة، أن ينتفع من ورائي إذا ظهر لي نفع، إذا سأل الفرعون عني مثلا فيكافئه. على العموم هذا ما وعدته به وأنا لوعدي الحافظ.
إذن أخرجني جان الفرنسي من المتحف الفرنسي. دلّني على مكان أختبئ فيه: غرفة صغيرة جلست بداخلها وأغلقها عليَّ حتى جاءت صديقة له شعرها أصفر كالقمح وحسنة الملمح، وكانت معها ملابس فرنسية فأعطاني إياها. خلعت ملابسي البسيطة وارتديت هذه الملابس الغريبة عني ـ مضطرًّا ـ وخرجت من الغرفة. قادتني صديقته الشقراء وفي دقائق كنت خارج المتحف، ثم بدأت سلسة من الأحداث التي لم أفهمها وقتئذ والتي تركتني فاغر الفاه من الدهشة. وضعتني صديقته على مقعد حديدي بعجلات وقادتني إلى إحدى العربات الحديدية التي تجري، وبعد وقت وصلنا إلى منزلهم. كيف أشرح لك وقع دخول هذه المباني الغريبة عليّ أول مرة؟ كأنني أدخل مقبرة في هرم. الآن اعتدت هذه الأشياء. في المساء عاد جان وأحسست ببعض الطمأنينة لمّا رأيته. ظللت عدة ليالٍ في منزله ثم أتى لي بطبيب صديق له، وظل هذا الطبيب يُجرِي عليّ فحوصًا لِمَا يزيد على ثلاثين ليلة. كان جان في هذه الأثناء يشرح لي كل شيء مما يدور حولي، وبدأ يأخذني في جولات خارج المنزل كل يوم كي أرى بعيني ما يشرحه لي: المواصلات السريعة العامَّة، السيارات، الطائرات، السفن السريعة. الاتصالات اللامرئية: التليفون، التلفزيون، الفاكس، الأجهزة المنزلية، الشوارع الأسفلتية، القمامة، جامعي القمامة، الأنفاق، الكباري، العمارات السكنية، المباني الحكومية، الشركات، المصانع، العمال، المرتبات والأجرة، الانتخابات، النقابات والأحزاب، الجامعات والمدارس الضخمة، أماكن التسلية واللهو الجماعي: المقاهي، البارات، دور السينما، المسارح، المراقص، دور البغاء. الوقت، الساعة، والسنين المتساوية. البناء والتشييد بالآلات والروافع، الميكانيكا، دور الاستشفاء العامَّة، الطبيب الخاص لأي شخص من العامَّة، وفوق كل ذلك ما قضّ مضجعي ليالي عِدّة: الكتابة الآلية بكميات كبيرة: الآلات الكاتبة، والآلات الطابعة، الكتب والمجلات والصحف اليومية المكدسة بكميات رهيبة على الأرصفة كل صباح. الأسلحة، السجن، المقابر الصغيرة، جوازات السفر، الكهرباء، المصابيح في الشوارع، محالّ البيع، البيع والشراء والسوق، الفرعون الفرنسي ووزراءه، المرور، النقود، ثم النقود، ثم دائمًا النقود. الكنيسة، المسجد، المعبد اليهودي، اليوجا، المسابقات الرياضية، كرة القدم، الملابس، الموسيقى الجماعية، ثم الموسيقى التركيبية، ثم الموسيقى الآلية، الكمبيوتر، التصوير بالفوتوغرافيا، تصوير الورق الفوري، الرجل يعيش وحيدًا. المرأة تعيش وحيدة، بلا أهل. السفر. الشحّاذين ومن لا مأوى لهم. البنوك: مرة أخرى النقود...
كان جان معلّمًا جيدًا، وكان صديقه طبيبًا جيدًا وبدأت أستردّ الكثير من عافيتي. غير أن ساقَيّ ظلّتا مشلولتين، وفي نهاية المطاف قرر الطبيب أن يأخذني إلى إحدى دور الاستشفاء. واخترعوا لي اسمًا مصريًّا يشبه سحنتي وأدخلوني المستشفى بالفعل. كان العلاج معقدًا وعجزت عن فهم مدلول

المصطلحات الطبية، لكن جان كان دائمًا معي وأيضًا الطبيب صديقه كان يأتي من وقت إلى آخر. وبدأت في التحسن، وبعد نحو شهر بدأت في السير عليهما. إلّا أنه كان يتعين عليّ الذهاب إلى المستشفى مرة كل شهر لآخذ حقنة معيَّنة حتى لا تتدهور حالتي. كان كلام الطبيب المعالج في المستشفى واضحًا: إذا لم تأتِ لمرة واحدة فقط فهناك خطر على حياتك. ماذا يعرف هو عن الحياة أو عن الموت؟ أنا حور الكاتب المصري قاهر الحياة وقاهر الموت وقاهر الأزمنة. تعبت من الكتابة. الساعة تقترب الآن من السادسة مساء ويجب عليّ أن أذهب إلى المطعم المجاور لتناول العشاء.

الساعة التاسعة. تناولت الطعام في لاروتوند، وهو مطعم صغير في تقاطع بولفار مونبارناس مع بولفار بورويال تعودت منذ فترة أن أتناول فيه وجبة العشاء. في البداية حاولت أن أعد الطعام لنفسي هنا لكنني أدركت سريعًا أنني لن أستطيع التعامل مع الطعام الفرنسي مثلما يباع في الدكاكين فآثرت المطاعم. جان، بعد فترة من الوقت، ستة أشهر بالزمن الفرنسي، قال إنه لن يستطيع إيوائي أكثر من ذلك لأن صديقته، التي كانت تعمل في مدينة لِيل ستنتقل إلى باريس وستأتي للعيش معه، وصادف ذلك هوًى في نفسي إذ كنت أودّ أن أرحل عائدًا إلى بلادي، ولكنني كنت أريد أن أتمكن أولًا من الحياة هنا كي أستطيع مواجهة الرحلة وحدي. فأخبرته برغبتي. كانت أمامنا طريقتان: الأولى أن أرفع قضيّة أمام القاضي الفرنسي وأطلب فيها إسقاط أي حقوق للمتحف الفرنسي على شخصي باعتباري رجلًا حرًّا عاقلًا مكتمل الشخصية، والثانية أن أهرب عبر الحدود إلى أي بلد مجاور (إسبانيا أو إيطاليا) وهناك أذهب إلى سفير الفرعون المصري المقيم وأطلب منه وثيقة تسمح لي بالسفر، وكان رأي جان أن نتبع الحل الأول، ولكن بالسؤال لدى رجال القانون الفرنسي اتضح استحالة ذلك الحلّ. فبمجرد ظهوري سيتعين على القاضي تسليمي للمتحف والحكم بحبس جان وذلك قبل النظر في الدعوى المرفوعة مني. وكان ذلك وحده كفيلًا بجعل هذا الطريق غير نافع لإحقاق حقي. بالإضافة إلى ذلك فإن القانون الفرنسي كان سيقضي لا محالة ـ وفقًا لنصوصه الواضحة ـ بأحقية متحف اللوفر في احتجازي لديه وبجرم الفعل الذي اقترفه جان بمساعدتي على الهرب. كان ذلك هو نصّ القانون ولم يكن أمام أي قاضٍ فرنسي مهما بلغ إحساسه بعدالة قضيتي أن ينصفني على حساب خرق القانون.

كان القاضي الفرنسي عاجزًا عن إحقاق حقِّي ولم يتبقَّ أمامي سوى الحل الثاني.

كيف يمكن تدبير عملية الهرب؟ الحل الأول الهرب إلى إيطاليا. الحدود بين مقاطعة الألب البحرية وبين الشمال الإيطالي أطول من فرع النيل من البحر حتى الجيزة. وكلها غابات ومزارع وقرى. يكفي المسير ليلًا من مدينة اسمها منتون وفي الصباح أكون في أولى المدن الإيطالية، اسمها فينتيميجليا. الحل الثاني إلى إسبانيا عن طريق مدينة بوه الفرنسية، ولكن المنطقة جبلية ووعرة وبها سكان يكرهون الإسبان والفرنسيين معًا ويقيمون القلاقل من وقت إلى آخر. قال لي ذلك جان وصديقه، ثم قرّرا أنهما سيحتاجان إلى معونة أحد سكان المنطقة ويُستحسن مَن له خبرة بالتهريب، وفي بضعة أيام كان الطبيب قد توصَّل إلى شخص تونسي اسمه بنساله (المقصود «بن صالح»، المترجم) يعمل سائقًا على سيارة لنقل الموادِ الغذائية بين مدينة نيس ومدينة جنوة. واتفقوا معه على أن يلتقطني عند مدخل منتون وأن ينزلني في فينتيميجليا. من هناك سيتسلمني شخص إيطالي اسمه جرامشي ويقودني إلى روما حيث سيسلمني إلى سفير الفرعون. رجال الحدود لن ينتبهوا لوجودي في صندوق السيارة الكبيرة وسط المواد الغذائية، فإنهم عادة لا يفتشون السيارات الخارجة من فرنسا بل تلك الداخلة لأنها هي التي تحمل الهاربين المتسللين إلى الأراضي

الفرنسية. قلت لنفسي لماذا يتسلل أي من كان إلى بلاد غريبة كهذه؟ وحددوا الموعد غدًا صباحًا. كان ذلك من شهر تقريبًا، وقد اتفقوا على ذلك الموعد لأن بنساله يذهب في رحلته هذه مرة أسبوعيًّا وكان يجب أن يتركوا له فترة كافية لترتيب الأمر مع جرامشي ثم الرد على جان ثم الرد على جرامشي بالاتفاق النهائي. كان جان هو الذي سيتولى تحمُّل كل النقود اللازمة لذلك، وعلى الرغم من أني أكدت على وعدي بمكافأته مكافأة فرعونية تليق بمجهوده وبرفعة الفرعون ورجاله فإنني شعرت بأني صغير جدًّا وأنا واقف هكذا لا حول لي ولا قوة وهم (جان وصديقه وبنساله وجرامشي) يرتِّبون كل ما يتعلق بي دون أن يكون لي رأي ولا قرار. لا، لست أنا من يقف هذا الموقف. لكني لم يكن لدَيّ خيار آخر. فبلعت غصتي وسكتّ. في خلال هذه الفترة كان عليّ مغادرة منزل جان الذي وجد لي هذه الغرفة العجيبة وأعطاني رزمة من النقود لأشتري منها السلع والخدمات التي أحتاجها.

الساعة الآن العاشرة. في الواحدة صباحًا سيمرّ عليّ جان ليأخذني إلى الجنوب الفرنسي، إلى منتون، لأسافر. الليلة تبدأ رحلتي إلى بلادي. وداعًا يا أيها الأسر الفرنسي. وداعًا يا أيتها الغربة الكئيبة. أنا لن أصبح غريبًا بعد الآن. سأكون أنا من في وطنه وسيكون الآخرون هم الغرباء. هم الأجانب. هم الأقلّ. هم المدهوشون. هم غير الفاهمين. هم الذين أشرح لهم، وأوضِّح لهم وأعلِّمهم من حكمتي. هم الذين لا يأخذون القرارات وهم الذين لا خيار لهم. هم الذين يسألون عن قوانيننا وعمّا يسمح لهم به القاضي المصري. هم الذين يقرأون ما يكتبه الكاتب المصري الذي هو أنا. أنا المطمور المطموس المغموط حقي المقهور المنسيّ. سأعود أنا القاعدة مرة أخرى وهم الاستثناء.

لن أرى امتعاضة وجه موظفة التذاكر الفرنسية في المترو وهي تحاول فهم فرنسيتي ذات اللكنة المصرية، ولن أرى تعالي النادل الفرنسي في الروتوند وهو يستوضح مني طلباتي، ولن أرى حدة أنف مديرة المكتبة العنصرية وهي تصرّ على أن أبرز لها بطاقة تحقيق شخصيتي. ولن أرى جان الذي يأخذ نفسه على أنه معلِّمي ومرشدي إلّا لأردّ له جميله المحدود والذي كان أبسط عامل بناء مصري سيقدمه لو كان في مكانه. أنا عائد إلى بلدي، إلى وطني، إلى الأرض التي أنا فيها سيد وصاحب. وداعًا يا أيتها المدينة الباردة الداكنة السماء. وداعًا للعربات الحديدية وللنقود السيدة الحاكمة وللتلفزيون. أنا عائد إلى الوادي والدلتا، إلى نخلي وإلى قمري، إلى فناء منزلي وعصافيره، إلى دجاجات زوجتي وحمامها، إلى أرض أبي ومثواه. إلى إلهي الفرعون وكَرَمِه وطيبته، إلى مكاني ومكانتي. الليلة أبدأ رحلتي، أو أتم الرحلة التي أجبرني اللصوص على خوضها.

سأسلم هذه الأوراق إلى فخر الدين الذي سيمر عليَّ بعد ساعة. سيترجمها ويرسلها إلى صديق له في مصر لينشرها. معي عنوانه. الوداع يا أيتها الغطرسة الفرنسية.

* * *

كانت فاطمة جالسة على جهاز غسل الكُلَى. كان الجهاز يعمل، وكان ذهنها يصفو. منذ ثلاث ليالٍ وهي مقيمة بمستشفى السلام الدوليّ. الشيخ دفع كل المصاريف وسيدفع كل المصاريف الأخرى. كانت تأكل، وكانت تأكل طعامًا نظيفًا. وكانت تشرب، وكانت تشرب مياهًا معدنية أتى بها الشيخ معه من الجزيرة العربية، ثم أعطاها ماء زمزم لتشرب منه، وغسلوا لها الكُلَى ثلاث مرات. في أول يوم استمرت الجلسة ١٢ ساعة حتى أزالوا كل وساخات الماضي. قال لها الطبيب إن كُلْيَتَيها الآن أفضل مما كانتا عند الولادة. صحيح أنها ستحتاج إلى غسلهما كل أسبوع أو على الأكثر كل أسبوعين، لكن الشيخ وعدها أنها ستغسلهما هناك كل أسبوع وبانتظام كالساعة. نقود؟ لا، لا أحتاج إلى النقود، وفيمَ الحاجة إليها كان الشيخ يعتني بكل شيء، ويحسب حسابًا لكل رغباتها من قبل أن تنطق بها، وكل ذلك ولم يمسَسْها بعد، لم يكتب حتى عليها، وتستطيع الآن أن تخرج من المستشفى وتذهب حيثما تريد وليس له عندها أي شيء. لكنها لن تخرج، وإلى أين؟ كانوا يموتون بين يديها، وكانوا لا يجدون القدرة حتى على حملهم إلى مقابر الرفاعي. كانوا يدفنونهم في الغرفة الأخرى. ثم مات هو، ودفنته بيديها مع الأولاد. لا، لن أخرج من هنا إلّا مع الشيخ. أكبر مني؟ بأربعين سنة على الأقل. أنا لا أعرف ماذا يريد مني، ولا أظن أن فيه عافية للزواج وللفراش. يريدني خادمة إذن لآخر أيامه. ليكُن ما يريد. أنا خادمته وعبدته ومِلك يمينه. أنا معه وسأتبعه أينما يشاء. أيّ مكان أفضل من هنا. توقف الجهاز وظلت فاطمة وحدها في الغرفة المطلة على مجرى النيل. كانت ترقب مجرى النيل الفارغ. الأرض خشنة مشقَّقة، ومن الجانب الآخر بدت حقول المنيب قاحلة صفراء. كان الخراب يحلِّق فوق الأرض كلها. أغمضت عينيها وغفلت قليلًا... عندما أفاقت كان الطبيب يفكُّ توصيلات الجهاز، ثم دفعتها الممرضة إلى غرفتها على فراشها المتحرك. دقائق وجاءت أم سيد مبتسمة. أعدّت لها حقيبتها وأخبرتها أن الشيخ منتظر تحت في السيارة ومعه المأذون والشهود وكل شيء جاهز. نظرت إليها بجانب عينيها وقالت في مكر مفضوح:

- إحنا لسه على البر يا بت يا فاطمة، فكري تاني قبل ما تقولي آي.

- خلاص فكرت يا خالة.

- وموافقة؟

- موافقة يا خالة، بالعشرة.

- لا ترجعي تقولي خالتي امّ سيد غصبت عليّه؟

هزت فاطمة رأسها بالنفي وقامت من فراشها. كانت أم سيد قد جمعت حاجاتها الخفيفة في حقيبة يد صغيرة وحملتها معها.

- طب يلّا بينا لاحسن الناس يستعوقونا.

مضت فاطمة خارجة من الغرفة. كان ذهنها صافيًا ولكنها كانت تشعر ببعض الوهن. هبطت المرأتان في المصعد إلى الدور الأرضي. خرجتا من المصعد. تقدم السائق وألبسهما قناعين ثم مضوا جميعًا خارج مبنى المستشفى. دخلوا إلى السيارة على عجل وانطلقت بهم على كورنيش المعادي. كانت عينا فاطمة العسليتان تنظران من خلال الزجاج البني الغامق إلى ملامح الكورنيش المهجور والسيارة تقطعه في اتجاه التحرير. مرت من أمام مصر القديمة ومساكنها. صبي نصف عارٍ يلعب حول طلمبة ماء منسية وجافّة كالحطب. أغمضت عينيها وغفلت قليلًا. عندما أفاقت كانت السيارة قد مرت من أمام القصر الفرعوني وتحصيناته ونوافيره التي عبثًا تداري العفن. توقفت السيارة أمام مكتب المأذون ونزل السائق وعاد بعد دقائق برجل آخر. هذا هو المأذون.

قالت أم سيد. فتح المأذون أوراقه داخل السيارة. بدأت السيارة في التحرك وبدأ هو في توجيه الأسئلة التقليدية إلى العريس وإلى العروس وإلى الشهود. وثّق الشيخ بخاتمه على وثيقة الزواج ثم وقّعت فاطمة ثم وقّع الشاهدان. عندما وصلت السيارة أمام نادي الضباط كان القِران قد عُقد وأصبحت فاطمة زوجة الشيخ. توقفت السيارة وهبط المأذون والشهود وأم سيد والسائق. غابوا قليلًا بالخارج ثم رأت فاطمة وجه أم سيد من خلف قناعها وهي تلوّح لها من خلف الزجاج. دخل السائق إلى السيارة وانطلق في طريق المطار. كان الطريق خاليًا من السيارات ومن المارّة ومن كل شيء، وبدا لفاطمة أن القاهرة صارت مدينة أشباح أو مقبرة جماعية. وصلت السيارة إلى المطار الجديد سريعًا. أخذ السائق وثائق الزواج ونزل من السيارة وغاب قليلًا في وحدة جوازات المطار التي أنشأتها الداخلية تيسيرًا على المسافرين بعد انهيار مجمع التحرير الذي تحللت جدرانه من تأثير العفن السائل فيه. بعد خمس دقائق عاد ومعه جواز سفر جديد لفاطمة زوجة الشيخ. تحركت السيارة باتجاه صالة السفر وتوقفت أمام باب الدخول. هبط السائق سريعًا وفتح الباب للشيخ الذي نزل جريًا إلى داخل المطار. استدار السائق وفتح الباب لفاطمة التي كانت لا تزال ترتدي قناعها. نزلت ببطء. نظرت حولها وخَطَتْ نحو باب الدخول. فتح العسكري لها الباب فخَطَت داخلة. أشار لها الشيخ بيده فتبعته. أشار لها السائق فانتبهت إلى أنها لا تزال تضع قناعها. خلعته وأعطته له. كان السائق يحمل جوازات السفر في يد ويدفع عربة الحقائب بيده الأخرى.
قالت فاطمة في وهن:
- هو احنا حنسافر على طول كده؟
- حالًا.
- طيب ده أنا حتى ماعنديش هدوم.
- مش ح تحتاجي هدوم من هنا. الشيخ حيجيب لك من هناك هدوم من اللي الستات بتلبسها هناك.
صمتت فاطمة ومضت صامتة. قعد الشيخ فقعدت جواره. كان السائق يبدو من حين إلى آخر وهو يختم ورقة أو يزِنُ حقيبة أو يشير إليهما. جاء بعد لحظات وقال:
- كله تمام.
قادهما إلى شباك الجوازات ومضى معهما داخلًا. ختم الضابط جوازيهما وأعطاهما للسائق الذي اصطحبهما إلى الداخل. جلسوا في استراحة ركاب الدرجة الأولى وجيء لهم بشاي وكعك. مدّت فاطمة يدها بتلقائية وتناولت الكعك والشاي. رفض الشيخ تناول أي شيء. ظلوا جالسين في صمت. كان المطار خاليًا أو شبه خالٍ. جاء صوت المذيعة تعلن عن قيام طائرتهم. انتصب السائق واقفًا ثم الشيخ. انتبهت فاطمة على حركتهما فقامت. مضوا جميعًا نحو الباب المفضي إلى الطائرة. في نهاية الممر كانت ضوضاء وأصوات ناس كثيرة. نظرت فاطمة فرأت رجلًا أبيض الوجه قصير القامة بشوشًا واقفًا يتحدث أمام ميكروفونات مجموعة من الصحفيين المتحلقين حوله. كان يصمت أحيانًا ليستمع إلى سؤال أحدهم أو إحداهن ثم يردّ بعد ذلك. كان السائق والشيخ يتقدمان في الممرّ وفاطمة تسير وراءهما. كانت قد رأت هذا الوجه من قبل لا تدري أين. كانت تسير وراءهما وعيناها لا تفارقان هذا الوجه الذي تتشبّه عليه. أكيد أحد المسئولين الذين رأتهم في التلفزيون. كان وجهه أبيض وطيبًا وتبعث ابتسامته على الثقة. قصير القامة، ممتلئ بعض الشيء. كان في منتصف الأربعينيات. كان يتحدث بطلاقة وبصوت هادئ. مرت فاطمة خلف السائق والشيخ بجوار الرجل. كانت عيناها لا تزالان مسلطتين عليه تحاول أن تتذكر أين رأته. دارت عينا الرجل والتقتا بعينيها. صمت لحظة فالتفت الصحفيون جميعهم ناحيتها. قطع نظرته وواصل

الحديث. مضت فاطمة خلف السائق والشيخ. تفتيش أخير عند باب الطائرة. ممنوع اصطحاب الأقنعة. سلّم السائق على الشيخ وقبّل يده. رفع يده بالتحية لفاطمة وهي تدلف وراء الشيخ داخل الطائرة.

* * *

رأى ضوءًا في الأفق. أغمض عينيه في يأس. هي خرافات ما قبل الموت أو هو الموت نفسه. كان الضوء واضحًا حتى وهو مغلق العينين. من خلف جفنيه كان كل شيء أسود حالكًا ما عدا بقعة في أعلى الجفن سوادها محمرّ. فتح عينيه ونظر ثانية. كان ضوءًا ولا ريب. هل هو ضوء مَلَك الموت الآتي سعيًا في هذه الصحراء الثلجية ليقطف ما بقي من روحي، أم ضوء مشاعل بقيّة رفاق السلاح آتين للبحث عني، أم ضوء الطائرات أم الحلم أم السراب أم انفجار عينَيّ أنا؟ كانت نقطة من الضوء، حمراء في آخر الصحراء. النقطة تتحرك ببطء على خطّ الأفق، تعلو وتهبط. تكبر وتقترب. كانت نارًا في الأفق. أهي معركة أخرى، أم قذيفة الأعداء فوق معسكر فرقة أخرى، أم أضواء احتفال العدوّ بالنصر السريع الخاطف؟ كانت نقطة الضوء تسير. كانت مشعلًا في يد أو أكثر. كانت تسير بحذاء خطِّ الأفق. لعلهم جنود العدوّ. لعلهم ما علّهم يكونون لكن أكيد أن معهم ماءً وطعامًا. هبّ رزق واقفًا. نظر إلى ساقَيه، نظر إلى نفسه واقفًا ولم يصدق عينيه. ليكُن ما يكون، لعلّي أحلم، فليكن. حرّك قدمه في اتجاه الضوء فتحركت. سار قليلًا ثم أخذ يجري. أخذ يصيح على حاملي النار. كانت السماء سوداء والأرض، وكان رزق يجري بعُرض صحراء سيناء في اتجاه الضوء الذي لا يعرف مصدره. كان يجري والريح ترتطم به. لا يشعر بساقيه المسلِّمتين إياه للريح، ولا يرى سوى نقطة الضوء في آخر الأرض.

* * *

دارت محركات الطائرة. أسند الدكتور هاشم محيي الدين رأسه على زجاج النافذة وأخذ يرقب مقدّمة الجناح. أسندت فاطمة رأسها إلى الزجاج وهي مغمضة العينين. سيحملني هذا الجناح من هنا. ربما إلى الأبد. قد يتحقق الحلم ويسمح لي بالفرار مرة واحدة وإلى الأبد من هذا الجحيم. كان الدكتور يفكر: كم مرة ركبت فوق هذا الجناح؟ أكثر من أن يستطيع أي شخص أن يعدّ. مدير مكتبي، بالاستعانة بموظفي الشئون المالية الذين يصرفون البدلات قال لي إن معدل سفري هو مئتا يوم بالسنة. كان كل الوزراء يحسدونني على هذه الأيام التي أقضيها في الخارج مسافرًا. هم جميعًا يسافرون، ولكن لا أحد يسافر مثلي. لا أحد منهم وصل إلى أكثر من مئة يوم باستثناء رئيس مجلس إدارة شركة التلوث الذي يقضي ثلاثمائة يوم بالخارج. الذي لا يعرفه هؤلاء الجهلة هو أن السفر فَقَد متعته ومعناه معي. مئتا يوم بالسنة ولا أظلّ ببقعة واحدة أكثر من يومين أو ثلاثة على الأكثر. أي متعة في هذا؟ حتى الاتجاه فقدته ولم أعد أعرف هل أنا ذاهب أم عائد. من مطار إلى مطار ومن فندق إلى فندق وهكذا. حقيبتي صارت الشيء الوحيد الملازم لي. أكثر من زوجتي وأكثر من مدير مكتبي الملتصق بي كالطاعون. عشرون عامًا من الوزارة ومن السفر. في البداية لم أكن أسافر كثيرًا هكذا. كنت أحب البقاء أكثر في الوزارة لتسيير أمورها ومراقبة تنفيذ الإصلاحات التي أُدخِلها، وللمواظبة على حضور اجتماعات مجلس الوزراء والذهاب إلى مجلس الشعب للخطابة في النُّوَّاب النائمين والغائبين والمغيَّبين. كنت أحب البقاء وتفويض مساعدي للسفر وحمل الرسائل مني أو بدلًا عني. كان ذلك ديمقراطيًّا أكثر وحديثًا أكثر، وكنت أحب أن أكون موجودًا حين يطلبني الفرعون. ليس ذلك عن سذاجة أو طيبة قلب وإنما لأني كنت أعرف أنه فور غيابي سيقفز عشرون شخصًا للحلول محلي في عملي والإفتاء للفرعون في شئون وزارتي، وحين أعود أفاجَأ بقرارات اتخذها هو دون معرفتي وتطبَّق عليّ وهي في معظمها قرارات خطأ أو على الأقل غير حكيمة. كان أول هؤلاء القافزين طبعًا وزير التلفزيون الذي احترف مهنة الكلام منذ أصبح يتولى شخصيًّا ملء ساعات الإرسال بأحاديثه وأفكاره. وغيره كثيرون، حتى مساعدِيّ أنا شخصيًّا ينتهزون الفرصة لطلب مقابلة الفرعون والإفتاء له؛ ولذا كنت أفضل البقاء وإرسالهم هم في المهمات، ولم يكن يجرؤ أي منهم على مثل ذلك وأنا موجود. كانت علاقتي بالفرعون ممتازة. كنت جديدًا في الوزارة وكنت حيِيًّا وبريئًا مثل الفتاة المخطوبة لأول مرة، وكنت أكلِّم الفرعون بأدب شديد وبألفاظ مختارة وأبذل مجهودًا خرافيًّا في توضيح رأيي والدفاع عنه وإقناعه بالأرقام والمستندات. كنت أحضر مقابلتي معه من قبلها بساعات أغلق عليّ مكتبي فيها كأني ذاهب إلى امتحان. أنا أستاذ الجامعة المرموق الذي يهزّ اسمي نصف جامعات العالَم المتحضر كنت أعود طالبًا يجهز امتحاناته. مع الوقت لم أعد مخطوبة، بل تزوجت الفرعون، أو بالأدقّ، تزوجني الفرعون. الأدب في الحديث لم يفارقني، والتمسُّك بإقناعه لم يفارقني، وإلّا كانت وظيفتي قد فارقتني من زمن، ولكن الذي فارقني هو هذه اللهفة، هذا الحماس، والتصديق أن من الممكن تغيير أي شيء أو عمل أي فرق. مع سنوات العمل الطويلة، ومع ما كنت أراه أمامي في أعلى مستوى كان يمكن أن يخطر على بالي، كنت أتأكد من أن كل شيء سيأخذ طريقه المحتوم. لم يكن من الممكن أن لا يحدث ما حدث لأن كل ما حدث لم يكن صدفة وإنما كان له مليون سبب موضوعيّ أدّى إليه. نظريًّا، كانت هناك حلول أخرى ممكنة، ولكن عمليًّا لم تكن هناك أي فرصة لأن تنفَّذ هذه الحلول لأن ولأن ولأن... استغرق الأمر مني سبع سنوات كي أتأكد من ذلك، وفي السنة السابعة قررت أن أستريح، وبدأت في السفر. كانت علاقاتي ببقية الوزراء قد استقرّت. مع تغيُّر

الوزارات، وذهاب ناس ومجيء ناس، وسقوط أسماء كانت تظن نفسها نُوَّاب الفرعون وصعود أسماء لم نكن نسمع عنها والتصاقها بالفرعون، كنت قد قررت أن أبقى بعيدًا عن الشِّلَل التي تتكون في المجلس. كان الانضمام إلى شِلّة له فوائده، سواء في الحماية التي يكتسبها الوزير من بقيّة أعضاء الشِّلة والذين يبلغونه أولًا بأول بالوشايات والمقالب والخدع والمؤامرات إلى آخره، أو في المنافع التي يتبادلونها مثل تركيب التليفونات في غير مواعيدها وشراء الأراضي التي ستدخل كردون المدينة قبل موعدها أو... أو... ولكن الحماية الأهم والمنافع الأكبر كانت تأتي من زعيم الشِّلة نفسه، وذلك بحكم صلته الخاصة بالفرعون وبحكم سيطرته على بقيّة أعضاء الشِّلة. ولكني رأيت أن مضارَّ الشِّلل أكبر من منافعها، ففي أول سبع سنوات كنت تقريبًا عضوًا في الشِّلة الرئيسية المقرَّبة من الفرعون. لكن ذلك جعلني هدفًا دائمًا لمؤامرات ووشايات الشِّلة الأخرى، ويعلم الله أنها كانت كوارث. كذلك فإن سقوط زعيم الشِّلة كاد يودي بي خارج الوزارة. لولا أن علاقتي بالفرعون كانت ممتازة، ومن وقتها وأنا خارج الشِّلل كلها، ألتصق بالفرعون وحده، وأرفع إليه وحده شكواي ومسعاي. هو رئيسي وفرعوني الإله ووليّ نعمتي. قد يكون ذلك الكلام قاسيًا، ولكن هكذا استطعت وحدي، دون أقراني، البقاء في الوزارة عشرين عامًا.
كان بقائي خارج الشِّلل قد جعل مني شخصًا مسالمًا للجميع. لا أحد يخشى مني وإن كان لا أحد يفكر في إيذائي حقيقة. ممكن طبعًا بعض المناوشات من أجل التنافس على رضا الفرعون، ولكن لم يكن هناك خطر مني يستفز الآخرين. واستقرت صورتي كشخص محايد. حتى إني في بعض الأوقات كنت أقوم بالتوسط بين الشِّلل وتوصيل الرسائل. وأحيانًا بالتحكيم بينهم لفضِّ نزاع لا أمل في تسويته بالقوة. كذلك استقرت صورتي كتقنوقراط، أو ـ كما يحلو للبعض القول ـ كموظف لدى الفرعون. كنت كبير الموظفين في وزارتي ولم أكن وزيرًا، وكان الفرعون هو الوزير الحقيقي الأول والأخير، ولكن ذلك كان الحقيقة في كل الوزارات الأخرى. كل ما حدث أني أدركت ذلك من البداية وتصرفت وفقًا له بحيث يكون الفرعون هو متخذ القرارات الكبرى وبالتالي المسئول عنها لا أنا في حين كان الوزراء الآخرون يتحملون هم مسئولية قراراتهم، وهكذا ظللت وزيرًا لعشرين عامًا. مرت المضيفة باسمة أمام مقعد الدكتور هاشم ومالت عليه. في يدها صينية فضّية عليها مظروف أبيض مغلق.
ـ هذه الرسالة عاجلة لسعادتك. الطائرة ستنتظر حتى تكتب الرد. المندوب الذي أحضرها موجود بالخارج.
كانت فاطمة تسند رأسها إلى نافذة الطائرة وهي مغمضة العينين. إلى أين تحملني هذه الطائرة؟ كانت محركات الطائرة تدور بسرعة متزايدة وفاطمة تمعن في إغماض عينيها كأنها تفر من السفر المحتم. أمسك الدكتور هاشم بالمظروف في يده. أخرج نظارته الطبية من جيب الجاكت الداخلي وثبتها على عينيه. نظر إلى المظروف ثم نظر من النافذة إلى مبنى المطار. هدّأت الطائرة من سرعة المحركات ثم توقفت.
لا فـائـدة
* * *
سري للغاية
من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية بالقاهرة
إلى وزارة الخارجية ـ واشنطن

١ ـ انقطعت المياه عن المدينة تمامًا منذ صباح أمس وتوقفت البلدية عن تسليم مياه الشرب للمواطنين، وعند الظهيرة كانت بعض الاضطرابات قد بدأت في الوقوع، وقامت قوات الأمن بقمعها على الفور. إلّا أن السفارة علمت من مصادرها أن اضطرابات أخرى وقعت في معسكرات الأمن نتيجة نقص المياه. ثم انتشرت الاضطرابات اليوم في المدينة ووقعت مصادمات عنيفة بين المتظاهرين وقوات الأمن في وسط المدينة وفي حيّ شبرا، ولم يتوجه الموظفون إلى أعمالهم. كما توقفت معظم الخدمات، ولا يزال الموقف غير واضح.
٢ ـ وجّهت منظمات حقوق الإنسان الدولية والمحلية اتهامات إلى الحكومة المصرية بوقوع انتهاكات عديدة لحقوق الإنسان في أثناء الاضطرابات وباستخدام عنف لا يتناسب وحجم التهديد الذي قد تشكّله هذه الاضطرابات، وأكدت بعضها أن الحكومة تحتجز كميات المياه المتوافرة عمدًا عن معظم المناطق.
٣ ـ ظهر وزير الداخلية صباح اليوم في التلفزيون وردّ على هذه الاتهامات مؤكدًا «أن هذه المنظمات منظمات غير حكومية؛ وبالتالي لا قيمة لكلامها» (!) و«أن الحكومة المصرية هي التي تعيد إلى الإنسان كرامته»، وأكد أن لا صحّة لما تردد من أن الفرعون وأسرته قد غادروا البلاد.
٤ ـ من المنتظَر أن يظهر الفرعون هذا المساء في التلفزيون ليوجه كلمة إلى الشعب.
٥ ـ نتابع الموقف.
تقدير السفارة:
ترى السفارة أنه من الضروري أن تقدم حكومة الولايات المتحدة وحلفاؤها معونات مائية فورية للحفاظ على النظام والأمن. من الواضح أن استمرار انقطاع المياه يهدد الاستقرار.
السفيرة

* * *

أشعر بالملل. مرّ عليّ أسبوع ولم أكتب حرفًا واحدًا. لا رغبة لي في عمل أي شيء. لا في الكتابة ولا في القراءة ولا في الخروج ولا في الدخول ولا ـ فوق ذلك كله وقبله ـ في الذهاب إلى العمل/ اللاعمل. أجلس الآن على مكتبي الأبيض. كان في الأصل لوحة رسم أيام كنت أعمل مهندسًا. قبل أن أصبح صحفيًّا، قبل أن أصبح باحثًا في علم الاجتماع، قبل أن أصبح روائيًّا. أجلس على لوحة الرسم التي صاحبتني منذ بدايات البداية، منذ المنصورة والتمشّي مع فخر الدين في شارع الجلاء ليلًا وعلى كوبري طلخا وعند النيل. منذ أيام ما قبل العفن، ولم تفارقني قط. الشيء الوحيد الذي احتفظت به معي طوال هذه السنوات أو الذي احتفظ بي معه ولم يلفظني. قال محمود درويش:

«بقاياك للصقر

من أنت كي تحفر الصخر وحدكْ؟

وتعبر هذا الفراغ النهائيَّ

هذا البياض النهائيَّ؟

...

سنخلي لك المسرح الدائريَّ

تقدم إلى الصقر وحدكْ

فلا أرض فيك لكي تتلاشى

وللصقر أن يتخلص منك

وللصقر أن يتقمص جلدك»

هذا هو ما حدث لي بالضبط.

سحر عيسى اختفت منذ أسبوع، وأنا لا أجد ما أفعله ولا رغبة لي في فعل ما أجده. سوى أن أكرر هذه الكلمات. أكتب: الملل. أضع القلم ثم أمسكه ثم أكتب: الملل. هل ستواصل سحر اختفاءها في الصعيد أم ستعاود الظهور؟ هل ملّت مني ومن مللي ومن قرفي مثلما كانت تقول؟ من بين كل النساء اللاتى قابلتهن واللاتي دخلت معهن في مغامرات عاطفية أو حتى محض جنسية، سحر هي الأقوى والأفضل والأروع. أقوى من رامبو وأعظم من سنجام مثلما تقول عن نفسها. سأذهب لأُعِدّ لنفسي قهوة.

الصورة التقليدية التي يصورني فيها فخر الدين: أرتدي روبًا بنيًّا من الصوف. أمامي كوب كبير من القهوة، وأستمع إلى موسيقى باخ. والجوّ نصف مظلم في الغرفة وهناك أباجورة مضيئة فوق كتاب مفتوح من نصفه (لم أقرأ أوله ولن أقرأ آخره). لكني لن أصور نفسي هكذا لأنني مللت من تصاوير فخر الدين لي ومن فخر الدين نفسه. سأصور نفسي بشكل مختلف: سأصور نفسي من الداخل، أركب في قطار يتجه إلى المنصورة، يمر عبر الحقول، وأسند رأسي إلى النافذة. أفكر في مليون ألف شيء. لا رغبة لي في الذهاب إلى المنصورة ولا في العودة إلى القاهرة. أحلم بأن القطار لا يصل أبدًا إلى أي مكان. تأتي فتاة جميلة وتبتسم لي ثم تجلس إلى جواري. أبتسم لها ثم أقوم وأنزل سرًّا في المحطة التالية. آخذ القطار المعاكس المتجه إلى ما لست أعرف. أعد القهوة ثم أنساها ثم أتذكرها وأشربها باردة ولا أهتمّ. أتعرف على شابّ يُعرّفني على شباب يدبِّرون مؤامرة لنسف الحواجز الفرعونية عند مدخل القاهرة من ناحية شبرا. أنا لا أحبِّذ نسف المداخل لأن ذلك لن يحلّ شيئًا ولكني أكره كلًّا من وزير الداخلية ووزير التلفزيون فأشترك معهم. بعد أسبوع أكتشف أن ليس لي رغبة حقيقية فأنسحب متعللًا بأي حجّة.

لا أعرف أي الوصفين أفضل.
يجب أن أتوقف عن الحديث عن فخر الدين، لأنني دائمًا أتحدث عنه حتى عندما أريد أن أتحدث عن شيء آخر.
أبي مات منذ أسبوع.
سأتحدث عنه مرّة أخيرة. هو صديق قديم منذ أيام المنصورة وما قبل العفن، وقد سافر هو الآخر مع من يسافرون منذ أول أيام العفن. لم يحضر الجفاف الكبير ولا انهيار مجمع التحرير ولا إغلاق حدود القاهرة ولا أيام حظر التجول ولا الزلزال. يعيش في فرنسا حيث يدرس للحصول على الدكتوراه. يأتي من حين إلى آخر ليذهب ثانية. يُحضِر لي أشياء لطيفة لكنها بلا فائدة، تقريبًا. يكتب لي أحيانًا وأحيانًا لا. أحبه عندما يذهب أكثر مما أحبه عندما يبقى، ولكنني أكرهه لأنه يذهب دائمًا.
اتصلَت سحر الآن وقالت إنها في أسوان وإنها ستقضي بقيّة الشهر في الصعيد وستعود في أول الشهر القادم. كنت صامتًا وكانت تتدفق بالكلام. أعتقد أني سعيد بأنها ستعود. على الأقل هناك شيء أودّ أن أفعله: النوم معها.
كانت أمي مريضة منذ فترة. كانت لديها تشكيلة من الأمراض... أمراض السن الكبيرة كالسكّر والضغط وتصلُّب الشرايين، أمراض العفن كالفشل الكلوي وسرطان الجلد، وأمراض أخرى متفرقة، وكنت قد استطعت أن أجد لها مكانًا دائمًا في المركز الطبي المتعدد الذي أقامه الأمريكان في المنصورة. كان لها هناك ملف كامل، وكانت تذهب بانتظام لأخذ علاج أو غسل كُلى أو... أو... إلى آخره، وكان أبي يعتني بها جيدًا. كنت أستغرب إخلاص هذا الرجل لهذه المرأة.
منذ أسبوع ذهبتْ أمي إلى المركز الطبي بصحبة أبي كالمعتاد. وفي أثناء وجودها على جهاز غسل الكلى مات أبي. هكذا.
قال الطبيب إنه ذهب ضحية لمرض كان نادرًا وأخذ في الانتشار في الآونـة الأخيـرة. تحلُّل مفاجئ في كل خلايا الجسم، ولم يبدُ لي ذلك مقنعًا.
اليوم إجازة من الوكالة، وكنت قد أعددت خططًا كثيرة لهذا اليوم. لكن لا رغبة لي في فعل أي شيء.
أنا أطفو على الحياة ولا أعيش فيها.
خطأ من؟
ليس خطئي أنا بالتأكيد. أنا أحاول الدخول إلى الأشياء. أحاول تقمُّص دوري جيدًا. لكني أضحك في الوسط لأني أدرك جيدًا أن هذه أدوار وأن هؤلاء ممثلون. ما يقتلني من الناس من يصدقون الأدوار فعلًا ويحتدُّون في الأداء. بالأمس في الوكالة قال لي رئيس التحرير إنى لا أعمل كفاية. قلت له إنه لا يعمل من أساسه. قال لي: إشمعنى؟ قلت له: إن الوكالة عبارة عن مقبرة جماعية للبُلْه من أمثالي وأمثاله. الفارق أنه لا يدرك المسألة ويقوم بدوره كأبله ميت مدفون ببراعة حانوتي. زعل. لا يهمّ.
جاءت بالأمس السفيرة الأمريكية لمعاينة الوكالة. سيقومون بإهداء الوكالة أجهزة تيكرز جديدة لأن كل الأجهزة هنا عطلانة. كنت أنا ـ لسوء حظِّهم ـ (من هم؟ لا أدري) الوحيد الذي يتحدث الإنجليزية في الوكالة ساعتها فقمت بالترجمة. كنت أترجم خطأً عن عمد. ستفشل الاتفاقية فيما يبدو. كنت أرقب وجه السفيرة الأمريكية وهو يحتقن كلما نقلت إليها ردود رئيس التحرير (ردودي أنا في الواقع) وكان ذلك يُشعِرني بالبهجة.

موت أبي كارثة بكل المقاييس. كانت جنازته قاسية جدًّا وشعرت أني أمشي في جنازتي أنا. كانت أمي وأختي منهارتين في المنزل، وكنت أنهار أنا من الداخل في بطء. تمامًا مثلما مات أبي. أخي المسافر في السعودية لم يستطع المجيء ولم أكن أريده أن يجيء. كنت واقفًا عندما رفعوا جثة أبي ملفوفة في الكفن ووضعوها في جوف الأرض. كان الصراخ يتمزق داخلي. كنت أبكي كطفل صغير وأخبط على الأبواب بقدمي وأركل كل الكبار الواقفين في مخيلتي وكنت واقفًا كالصنم، كشاهد المقبرة أمام المقبرة. كانوا يأتون ويسلّمون عليّ وأنا أسلم عليهم ولا أعرف من هم ولا كم عددهم. كنت أفكر في ألبير كاميه وفي أمه الميتة في رواية الغريب. لكني كنت أنحلّ من داخلي. عندما بدءوا يهيلون التراب عليه امتدت يدي بحركة تلقائية إلى يد الرجل أمنعه. ربت شخص ما على كتفي وسحبت يدي وواصلوا الردم. في المساء كان صوت القرآن يجلجل في فضاء خاوٍ في روحي. في غرفة فيها مخصَّصة للعدم. كانت ذبذبات صوت القارئ تتخبط بين جدرانها ثم تتراكم على الأرض فوق مثيلات لها سبقتها، وكان منظر الصوان فارغًا بعد انتهاء العزاء مرعبًا.
لم أنَم ليلتها.
سافرت في اليوم التالي إلى القاهرة.
لم أنَم منذ أسبوع.
سحر سافرت
لم أنَم منذ مات أبي.
أين المفر من هذا الجحيم؟
ناصر

* * *

باعني التونسي. باعني بنساله، أو ربما صديقه الإيطالي جرامشي المزعوم، وها أنا ذا أقضي الليل على حافة الطريق السريع من فينتيميجليا إلى جنوة. أنزلني بنساله بعد أن خرجنا من فينتيميجليا بقليل. فتح لي باب الصندوق الضخم فنزلت، ولم أجد أحدًا واقفًا. قلت:

ـ أين جرامشي؟

فقال يبدو أنه لم يجئ، لكنه لن يستطيع أن ينتظر لأنه مرتبط بموعد للتسليم، وماذا عن موعدي أنا؟ قال إنه سيتصل بجان في الغد ويخبره.

ـ جان؟ في الغد؟ وما دخل جان؟ كلمني أنا هنا.

ـ لا فائدة. أنا لم أتفق معك أنت بل مع جان.

ـ ولكن الأمر يخصني أنا.

ـ جان هو الذي يدفع لي.

ـ وماذا أفعل أنا حتى الغد؟

ـ لا أعرف، انتظر هنا أو في أي من الحقول المجاورة.

ثم انطلق بسيارته النقل الضخمة، وها أنا ذا مُلقًى على قارعة الطريق. أنا حور الكاتب المصري العظيم. أنا صانع الحضارة في وادي النيل وصنو الفرعون. ما العمل؟ وقفت أشير للسيارات. لا أحد تراوده نفسه أن يهدِّئ السرعة حتى ليرى مَن المشير. سرت قليلًا، ولكن ذلك ليس حلًّا ساقاي تؤلمانني بشدة. وتذكرت أن موعد الحقنة الشهرية كان أمس ولم يكن لديّ الوقت للمرور على المستشفى لآخذها. قلت آخذها في روما أو في القاهرة. كانتا تؤلمانني طوال الرحلة الطويلة من باريس إلى هنا. إحدى عشرة ساعة في صندوق هذه العربة وهما تؤلمانني. يئست من الإشارة للسيارات فحدت عن الطريق. لا شيء من حولي سوى جبال الألب الميتة. الطريق السريع محفور في الصخر عاليًا في قمة الجبال. سيحتاج الأمر على الأقل مسيرة ساعة حتى أصل إلى أول قرية أو تليفون أو أي علامة للعمران. الإله يعاقبك يا بنساله والموت يحفر في نسلك. علّك تعبر نهر الموت حالًا. هبطتُ باتجاه القرى تاركًا الطريق السريع. وجدت دربًا منحدرًا بشدة إلى أسفل فاتبعته. الدرب يتلوّى ويبدو البحر في أسفل الجبل. البحر أسود كالسماء في هذا الليل. ماذا أفعل حين أهبط إلى القرى؟ هل أتصل بجان ليأتي إليّ ويساعدني؟ جان مرة أخرى وأنا الذي ما كدت أتخلص من الاعتماد عليه؟ هل أتصل بالشرطة الإيطالية لتأتي وتحملني إلى السفير في روما، أم ستحملني إلى حرس الحدود؟ هل أطلب معونة أحد من أهل القرى كي يحملني إلى روما أو إلى مستشفى ليعالج ساقَيّ المعذبتين؟ ولكني لا أتحدث حرفًا واحدًا من الإيطالية. ربما يتحدثون هم لغتي؟ ولكن جان قال لي إنه بمجرد عبور الحدود لا تجد شخصًا واحدًا يتحدث الفرنسية. كان حور يواصل الهبوط وساقاه تترنحان تحته. الظلام ينحدر من السماء ويلتحم بالبحر. الطريق مظلم أمامه ومنحدر وملتوٍ. تعثرت قدمه والْتَوَتْ تحته. سقط حور على صخرة وأخذ جسده يتدحرج نحو السفح...

* * *

نظرت فاطمة إلى سفح الجبل الممتد أسفل شرفتها. تنفست هواء نقيًّا وملأت به رئتيها. منذ وصولها هنا وهي تجلس في هذه الشرفة معظم الوقت. كان المنزل خاليًا أو شبه خالٍ. الشيخ في المدينة معظم النهار وعندما يعود تكون الخادمة السيلانية قد أعدّت كل شيء فيأكل ويقبّلها على جبينها وينام. لم يضاجعها ولا مرة واحدة ولم يطلب منها شيئًا حتى بدأت تشك في الأمر وتتساءل لم تزوجها وتجشم عناء إحضارها من مصر إلى هنا. كان للشيخ ثلاثة أولاد لكنهم كانوا غائبين عن البيت للدراسة في العاصمة ولن يعودوا قبل بداية الصيف القادم. كانوا ثلاثتهم في السنة الأخيرة من الجامعة وكانت أمهاتهم الثلاثة قد متن في حريق شبّ في منزل الشيخ القديم في المدينة وأتى على حريمه الثلاث وعلى كل ما في البيت. من يومها وقد خرج إلى الجبل. جلست فاطمة في شرفتها ونظرت إلى سفح الجبل الأجرد الممتد تحتها. لا شيء سوى الصخور والصخور. لا تذكر إطلاقًا كيف وصلت إلى هنا. كانت هناك سيارة فارهة في استقبالهم في المطار. قادهم السائق إلى وسط المدينة حيث استقلّوا سيارة جيب صعدت بهم الجبل إلى هنا وانصرفت. كانت فاطمة نائمة أو شبه نائمة طوال الطريق. ثم إن الطريق كله يتشابه، كله جبل وصخور وانحناءات ودروب، فيمَ النظر؟ كانت صحتها قد تحسنت بدرجة ملحوظة منذ وصولها. إلّا أنها كانت تذهب إلى المستشفى بانتظام لإجراء بعض الفحوص وكذلك لغسيل الكُلَى. السائق يمر عليها كل أسبوعين في موعد محدد ليصطحبها إلى مستشفى المدينة وينتظرها ويعود بها. نظرت فاطمة إلى سفح الجبل وهي تتذكر أيامها في بولاق الدكرور وسألت نفسها: هل يا ترى ولّت أيام السفر؟

* * *

يجري في الظلام ولا يكاد يشعر بساقَيْه تحته. نقطة الضوء تترنح بطول خط الأفق. صاح رزق على حامل المشعل بأعلى صوته. كان يجري في الرمل الصحراوي في أرض يجهلها. نقطة الضوء تتحرك إلى أسفل وإلى أعلى. أحس بخبطة قوية ثم اختفى الضوء.

* * *

سرّي للغاية

من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في القاهرة

إلى وزارة الخارجية ـ واشنطن

يُشاع أن الفرعون قد أصيب بأحد الأوبئة المنتشرة هنا وأنه يحاول الفرار من البلاد. لم تأتِ أي تأكيدات من القصر الفرعوني ولم تُطلب أي تأشيرات دبلوماسية إلى الولايات المتحدة.

نتابع الموقف.

السفيرة

* * *

مدت سحر يدها بالمنديل الكلينكس إلى خلف أذنها لتمسح العرق المتسرب من شعرها إلى أعلى ظهرها. المفروض أن هذه الأتوبيسات مكيَّفة. نظرت إلى الراكب الوحيد القابع في المقعد المقابل. منذ متى وهو جالس هنا؟ العرق يغمر وجهه وجلده ولا يبدو عليه أنه يعاني من أي مشكلة. نظرت سحر من الشباك. حقول الجيزة قاحلة والأرض سوداء مصفرّة من طول جدبها. المنظر مخيف. هل هذه هي الحقول الخضراء القديمة التي كانت تمدّ القاهرة الكبرى بكل فاكهتها وخضارها؟ هل هذه الشواهد البنية المحترقة هي النخيل الذي كان يتهادى بطول الطريق الزراعي؟ هل طريق الموت هذا هو طريق الصعيد الزراعي الجميل؟ كأنني أمر في أرض أسطورية. لا هي رمل ولا صحراء ولاحقول بل خراب محترق وعصف وهشيم. كم مرة مررت من هنا؟ أكثر من أن أعدّ. كلما مللت من رجال الفرعون ومن قرفهم هربت إلى الصعيد الذي عاد مستقلًا وبعيدًا عن سطوتهم. كأن أمراء طيبة عادوا وبدءوا في تنظيم المقاومة ضدّ الهكسوس. لكن طيبة ليس بها أمراء. طيبة ليس بها أحد على الإطلاق. طيبة مدينة ميتة. أكل العفن جدران بيوتها المهجورة وعصفت الريح الملوثة ببقايا جثث أبنائها ممن لم يسعفهم الصليب الأحمر بالدفن الجماعي. لا أنسى قط مشهد طيبة عندما دخلتُها بعد الوباء الأخير. كأن الجراد أتى على أهلها. لم أرَ في حياتي مدينة خاوية إلى هذا الحدّ. حتى أبو الهول الذي كان يحرس أسوار المدينة بألغازه المحيِّرة فر من فوق الأسوار. ليدخلها من يجسر على الدخول. حتى الجرذان فرّت منها. حتى الموت فرّ منها. صارت شاهدًا قائمًا على الانهيار الأخير وصارت مرتعًا للصحفيين ومسجلي الأفلام التصويرية لمحطات التلفزيون الأجنبية. ندخل محصنين بمائنا وأقنعتنا وأنابيب الأكسيجين والملابس المضادة للإشعاع. نقضي منها وطرنا ثم نطير بأسرع ما نستطيع. لا تصاريح ولا حكومة ولا حراس بعد خط الفيوم - بني سويف. كل ما عدا ذلك مُلقًى للعدم يأكل فيه شيئًا فشيئًا وللموت يزحف عليه ببطنه الثقيل ويربض فوق سمائه. كل شيء هنا ملقًى للخراب يضرب في أنحائه بأجنحته كالرخ الذي فكّ عقاله وجُنّ. لا شيء يذكرك بالسلطة الفرعونية سوى لعنتها وهذا الأتوبيس الذي يجري حتى أسوان بلا سبب. لأنهم نسوه. لأنهم نسوا الخط يعمل فظل هكذا، وظللت أنا المستفيدة الوحيدة تقريبًا من هذا الخط الأحمق. كلما ضاقت بي القاهرة، وهي جِدُّ ضيقة، هبطت ما كان واديًا وصار الآن تجويفًا هائلًا، وأخذت معي كاميرتي وأخذت في التصوير ومقابلة من أستطيع العثور عليه حيًّا أو شبه حيٍّ. ثم أعود إلى القاهرة أكتب ذلك كله وأنشره في صحيفة هنا أو جريدة هناك. لمن؟ لمن يقرأ ولمن يهتم ولمن يستطيع أن يقول لا أو أن يحرك ساكنًا أو أن يسكّن متحركًا، وماذا أكسب أنا؟ بعضًا من احترامي لنفسي أو ما بقي من احترامي لنفسي. أنا المُكرَهة على العفن. أنا المُكرَهة على البغاء المقنَّع. أنا المغتصَبة المضطرّة الكارهة. هذا ما بقي لي من احترامي لنفسي، وهذا ما لم يستطيعوا أن يسلبوه مني.

وُلدت في عفن يزحف من كل الجهات، ولما كبرت قليلًا كنت أراه على كل جدار وبيت، ورأيت النساء موامس برضاهن أو كرهًا، وعرفت من البداية أن هذا مصيري قريبا أو بعيدًا. هناك الموامس من أجل المال، وهن من يسمَّين بالداعرات، وهن أغبى النساء وأجدرهن بالشفقة. وكان هناك الموامس من أجل الحماية (هؤلاء اللاتى يضاجعن مقابل اللقمة والسقف الذي يئويهن)، وهن كثيرات مرطرطات في البيوت ومرتديات حجاب العفة والشرف، وهن أجدر النساء باللعن والرجم بالجزم القديمة. وهناك الموامس من أجل بعض النفوذ أو من أجل خدمات خاصة أو بلا سبب، وهؤلاء لا طعم لهن ولا رائحة. ثم هناك أنا، مثلهن كلهن، ولكن هدفي الوحيد الدفاع عن نفسي

ضد ما لست أقدر عليه من كوارث هذا الزمن الخاص الذي ابتُلينا به. مثلًا: منذ سنة ونصف صدر أمر بالقبض عليّ باعتباري أهدّد أمن الدولة! وجاء العساكر وأمسكوني وقادوني إلى الحبس وأدخلوني فيه. كان ذلك في الظهيرة وكان القسم مزدحمًا، ثم جاء الضابط المناوب في التاسعة مساء، وعندما نظر إليّ فهمت على الفور أنه كلب ووجد عظمة. ترددت قليلًا ثم قلت لنفسي بيدي لا بيد عمرو (كان اسمه فعلا عمرو)، وقد كان. خرجنا معًا قرب منتصف الليل وذهبنا إلى شقته (أو شقة أحد أصدقائه) ونمنا معًا مرتين ثم عدت إلى منزلي في سلام. هو تصرف بمعرفته. قطّع المحضر أو لم أكن قد سُجّلت أصلًا، كتب هربَت، كتب لم يُستدل عليها، أي شيء. بعد ذلك ظللت أحوم وألفّ حتى عرفت الشخص المطلوب في أمن الدولة، وقد كان. بنفس الطريقة حصلت على ملفي كاملًا من مباحث أمن الدولة. الملف نفسه لا صورة منه. اسمعوني جيدًا: أقول الملف. الأصلي. مقابل نومة! ولا سجن ولا قضية ولا دياولو. اكتشفت أن المسألة أبسط مما كنت أتخيل بكثير. لم يعد لي وجود أصلا في سجلات الحرس الفرعوني، واستكملت حياتي عادي جدًّا وكأن شيئًا لم يكن. منذ ستة أشهر قابلت نفس الشخص وأعطاني الملف الجديد وكررنا نفس الصفقة. وهكذا أؤمّن نفسي، وإذا نُقل، سيأتي غيره، وهو رجل مهما كان ومن ثَمَّ فلا قلق. كان السؤال بسيطًا وكذلك الإجابة: أنا أعيش في مملكة يحكمها الجنون، هل أتركه يأتي عليّ أم أنفذ أنا بحيلتي فيه؟ فكرت، ورأيت، وخمّنت، وجرّبت. واكتشفت أشياء جعلتني أفهم. لمّا فهمت، عرفت أن بوسعي فعل أي شيء، وقد كان، ومن يومها وأنا طايحة. لا يهمني مخلوق صغر أم كبر. المثل بيقول اللي تعرف ديّته، اقتله، وأنا عرفت ديّته وقدرت عليها (كده كده كنت سأدفعها) ومن ثَمَّ فأنا أقتله. أقتله بلا أدنى رحمة أو تردُّد. الأتوبيس يجتاز بني سويف. آخر مظاهر الحياة، عند آخر هذا الشارع تبدأ مملكة الموت المطلق العنان.

* * *

في محطة رمسيس الثاني كان عبد العال جالسًا أمام نصبة الشاي. أخرَج حافظة نقوده الجديدة وأخرَج منها النقود. عد خمسة عشر جنيهًا وأعطاها للريس محمد الواقف خلف نصبة الشاي. ابتسم له الريس محمد وقال:

ـ والله واتعلمت الخباثة يا عبد العال!

ردّ عبد العال فورًا:

ـ عيب يا ريس ده أنا أخوك الصغير.

مضى عبد العال يحمل نصبته الصغيرة ودلف إلى المترو الراكن في المحطة. ألقى بالمساء على السائق وناوله كوب الشاي الساخن وجنيهين جديدين. مرّ من خلفه وبدأ في رص أكواب الشاي والحاجات الساقعة على الصينية. مر في العربات يطرقع على زجاجات المياه الغازية بالفتاحة المعدنية. يناول الزجاجات ويلمّ الثمن مقدَّمًا ويحذّر النازلين في المحطات الذين يشربون سفلقة. القطار ينهب الأرض باتجاه حلوان. يخرج من النفق فيغشى الضوء عينَي عبد العال ويدخل في النفق فيغشى الظلام عينيه. وعبد العال يمضي حاملا صينيته موازنًا جسده كيلا يسقط من اهتزاز القطار أو يسقط ما معه. مع الوقت لحق بالشاي والحاجة الساقعة أمشاط وفلايات ثم محافظ وإبر وبنس للشعر ثم أصبح كشكًا متنقلًا. يركب عبد العال في نفس القطار كل يوم ويناول السائق جنيهين وثلاثة أكواب شاي في النهار. في المساء، بعد منتصف الليل بساعة، يُتِمّ القطار رحلاته اليومية ويذهب للنوم في جراجه عند قدمَي الفرعون النائم واقفًا في ميدانه، وعبد العال لا يفارقه أبدًا. بعد منتصف الليل بساعة يأتي الشاويش المناوب ليفتِّش على القطار. يلقي بالتحية المعتادة

على عبد العال الملتحف بالبطّانية الميري التي أحضرها له الشاويش عطية، يردّ عبد العال التحية وهو يُخرِج يده من تحت البطانية بالجنيهين الجديدين. تصبح على خير يا عبد العال، ويمد يده يقطف الجنيهين ويردد وهو سائر: والله واد غلبان. كان عبد العال يخاف من الشاويشية، وكان خوفه مبرَّرًا. عندما جاء الشاويش الجديد أحمد إسماعيل، وهو صعيدي مثله من نواحي كوم أمبو، هبّ فيه صارخًا عندما رآه يمد يده بالجنيهين من تحت البطانية وأمسك بتلابيبه وأقسم ليبيتنّه في الحجز باعتباره لصّ قطارات ومتسولًا ويحاول رشوة موظف ميري، واقتاده بالفعل خارج نومته في العربة إلى مكتب مباحث المواصلات في المحطة. كان عبد العال يرتعش من الرعب وقد أيقن أن نهايته اقتربت وأنه سيواجه ما كان يخشى منه منذ سنوات. جلس عبد العال في مكتب المباحث بانتظار أمين الشرطة المناوب. كان المكتب بجوار الحواجز الحديدية المؤدّية إلى أبواب الخروج. كان عبد العال ينظر إلى هذه الحواجز وهو يرتعد. أحكم إغلاق البطانية عليه ولكن الرعشة لم تفارقه. دخل أمين الشرطة وألقى بأوراق في يده على المكتب الخشبي. لفّ إلى خلف المكتب ورفع سماعة التليفون وبدأ حديثًا خافتًا ومطوَّلًا. كان يتحدث ويلفّ بكرسيّه المتحرك خلف المكتب. لم يكن عبد العال يسمع شيئًا من المكالمة الطويلة، وفي إحدى التفافات الأمين على الكرسي رأى عبد العال المكوم في بطانيته السوداء فجأة. انتفض من الخضّة وصرخ فيه:

ـ انت بتعمل إيه هنا يا حيوان انت؟

ـ الشاويش أحمد يا بيه جابني هنا. عايز يمشيني.

قال عبد العال عايز يمشّينى ولم يقل يخرّجني من المترو. لم يجرؤ على النطق بالكلمة.

ـ هو أنا ناقصكم يا غجر!

أنهى الأمين المكالمة التليفونية وضغط على زر بجواره. كانت قامته مرتفعة فوق المكتب وقدماه تدقان الأرض في نفاد صبر. ظهر أحمد إسماعيل مهرولًا. بعد حوار سريع نظر إليه الأمين:

ـ انت ياله! انت مابتوردش اللي عليك ولا إيه؟

ـ باورّد والله يا سعادة البيه، واسأل الريس محمد.

ـ طب بس بس، سَدّ. انت حتعمل لنا فضيحة؟ اخرس خالص!

استكمل الأمين الحوار مع الشاويش. وجه الشاويش أحمد يتلون أحمر فأحمر غامقًا فيعود أسود مثلما كان.

ـ انت ياله! عاوز تخرج؟

انكسرت عينا عبد العال ورد متمتمًا:

ـ أخرج أروح فين يا بيه؟

* * *

كانت فاطمة تجري في الجبل. لا تعرف إلى أين تجري ولا في أي الاتجاهات. الشمس توشك أن تغرب في هذا الجبل المجهول المخيف وقدماها لا تتوقفان عن الجري في اتجاه النزول. كلما لاح لها درب نازل سلكته. الصخور التي مزّقت أجزاءً من ثوبها ومن ذراعيها هي كل ما حولها من علامات. يا ليتني حفظت الطريق. يا ليتني ما جئت إلى هنا. يا ليت الموت سبقه إليّ. كانت تجري والموت يطاردها. الموت الذي فرّت منه في بولاق الدكرور عرف طريقها وجاءها. ها هو واقف أمامها خلف هذه الصخرة. تحت هذا المنحنى، في آخر هذا الدرب، وفي عواء الذئب الآتي من جوف الجبل السامق فوق رأسها. من فوهات بنادق أبناء الشيخ المنتشرين في الجبل، بحثًا عنها، ومن فوهات أجسادهم الباحثة عنها. كانت تجري والصخور تمرق عبر نظرتها اللاهثة في اتجاه لا تدركه سوى بغريزتها. وإلى أين أجري؟ إلى مدينة لا أعرفها ولا أهل لي فيها ولا ناس. من النار إلى النار أجري. قفي. قفي وخِرّي ساقطة. ساقطة. هذا هو قدرك المحتوم. منذ العفن في بولاق حتى الرِّجس في هذا الجبل. لا تجري، لا تحاولي المزيد من الهرب. سيجدونك سيجدونك، وسيمسكون بك ويُرضِخونك لغرائزهم ولأنيابهم. كانت الشمس تغيب وفاطمة تجري هاربة في قلب جبل غريب في أرض غريبة.

* * *

سرّي للغاية

من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في القاهرة

إلى وزارة الخارجية ـ واشنطن

١ ـ تسلمت السفارة اليوم منشورًا من الخارجية المصرية يفيد بأن الفرعون لن يستقبل ابتداءً من اليوم أيًّا من السفراء الأجانب إلّا لتسلُّم أوراق الاعتماد، وأن الاتصالات كافة يجب أن تُجرَى من الآن فصاعدًا مع وزير الخارجية أو رئيس الوزراء.

٢ ـ هناك شيء غير عادي يحدث، وقد طلبت على الفور مقابلة الفرعون باعتباري أمثِّل الولايات المتحدة.

٣ ـ سأوافيكم بالتفاصيل في حينها.

السفيرة

* * *

كانت الأهرامات تبدو من خلف الزجاج الكبير في مقهى الميناهاوس. السيد مينا لم يأتِ بعد. تأخر عن موعده ربع ساعة حتى الآن ولم يأتِ بعد. الأهرامات تبدو متماسكة بل وطبيعية لمن لا يعرف. لكنني أعرف. من ضمن تطبيقات البحث الذي أجريناه منطقة الأهرامات. وتبيّن التالي: الأهرامات تعوم فوق بركة من العفن الجوفيّ المتسلل من المناطق السكنية المجاورة وخصوصًا من الطالبية، وقد ارتفع منسوبه في بعض الحالات، مثل حالة الهرم الأصغر، ليصل إلى غرفة الفرعون. وبالتالي قررت هيئة الآثار إغلاق الأهرامات. كان منظرها مع ذلك من الخارج محتفظًا بكل روعته، وكانت الأقمار الصناعية تواصل تصويرها في برامج خاصّة تُنقل إلى أوربا وأمريكا الشمالية واليابان للسياح الذين لم يعودوا يستطيعون القدوم إلى مصر. مدّ يده إلى فنجان الشاي ورشف منه رشفة. عندما جاءت سحر عيسى إليّ في المنزل كنت قد جهزت لها صورة من كل الوثائق، وقصصت عليها كل قصصي في الشركة سواء مع مدير مكتب الدكتور بدير أو مع مدير إدارتي ونائبه أو مع الدكتور بدير نفسه، ولم تدّخر الآنسة سحر وسعًا في كتابة الموضوع، وكانت فضيحة بجلاجل على صفحات المجلة، ونفد العدد هذا الأسبوع وأعيد نشره مع بعض الردود في العدد التالي. قالت لي سحر عيسى إنها لم تتلقَّ في حياتها مثل هذا العدد من المكالمات التليفونية. ما بين تأييد وعرض مساعدات، وأناس يقصُّون قصصًا مشابهة وقعت لهم، وما بين شتائم وتهديد ووعيد، وظلت القضية ساخنة لمدة شهر على صفحات المجلة. بعدها بأسبوع، وعندما بدأت الضجة تهدأ، اتصل بي السيد مينا مستشار الفرعون لشئون مكافحة التلوُّث وحدّد لي موعدًا في ميناهاوس. وقابلته بالفعل، وسلمته نسخة من البحث، وتحدثنا طويلًا. ثم تقابلنا مرتين أخريين وفي كل مرة كان يستوضح مني نقاطًا تفصيلية تشي باهتمامه بالبحث ودراسته المفصّلة له، ودخلت في مرحلة من النشوة، وعاد الأمل بكل قوته إليّ. وعادت الأحلام، وعاد البلد أخضر يانعًا نظيفًا وجميلًا، وظللت في هذا الزهو شهورًا، ثم شهورًا أخرى، ثم شهورًا إضافية، ثم لم يحدث أي شيء، وحاولت الاتصال بالسيد مينا فاكتشفت أنه لم يعطني لا عنوانًا ولا رقم تليفون ولا أي وسيلة للاتصال به. وظللت تائهًا هكذا لا أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل. وبعدما تحول الملل من صلابته إلى غيظ شديد من كل ما جرى، اتصلت مرة أخرى بسحر عيسى. إلّا أنها لم تكن موجودة، وقال لي رئيس التحرير إنه لا معنى لإعادة فتح الموضوع لأنه لا جديد فيه. حاولت إقناعه بكل السبل ولكنه رفض في عناد شديد. اتصلت بصحف المعارضة كافة وبالمستقلين وغيره، لكن أحدًا لم يُرد الخبط في السيد مينا، وبعد أسبوعين اتصل بي السيد مينا وقال لي إنه سمع من أصدقائه أني أبحث عنه. ففهمت أنه عرف باتصالاتي وأنه يقصد أني أرغب في التشهير به لا البحث عنه، فقلت ما دام يعرف فلا داعي للمراوغة، فهببت فيه، فحدّد لي موعدًا في الميناهاوس. ثم لم يجئ. ثم اتصل ثانية يعتذر بسبب انشغاله فقلت بمَ ينشغل عن هذا الموضوع إذا كان هذا الموضوع هو شغله؟ فقال ضاحكًا إن الأمور أعقد من ذلك وإني مثاليٌّ أكثر من اللازم. كل ذلك ولم تأتِ سيرة عودتي إلى العمل، ولم يحدث أي شيء لا للدكتور بدير ولا لمدير مكتبه أو لمدير إدارتي. عاودت الاتصال بسحر عيسى فوجدتها، وقابلتها ثانية ونشرت مرة أخرى قصتي مع السيد مينا. لم أفهم لِمَ قبلت المجلة أن تنشر مع أنها رفضت من قبل، ولما سألت سحر ابتسمت ابتسامة غامضة وقالت إن لها دَلالًا على رئيس التحرير. لم أفهم ولم أهتمّ أن أفهم. بعد ذلك اتصل بي مرة أخرى السيد مينا وحدّد لي هذا الموعد. ها هو يعبر المقهى قادمًا. شكله لا يتغير أبدًا.

قامته القصيرة وجسمه الضئيل. عيناه البارزتان قليلًا إلى الخارج والمتحركتان دائمًا. قميصه الأبيض المفتوح دون ربطة عنق، وبشرته البيضاء. جذب كرسيًّا وجلس في بساطة متناهية:
ـ مساء الخير يا سيدي!
ـ مساء النور يا فندم.
ـ جاهز؟
ـ علشان؟
ـ تيجي معايا.
ـ فين يا فندم؟
أومأ السيد مينا برأسه عدة مرات وهو يواصل الحديث في لهجة شبه آمرة:
ـ ح تيجي معايا القصر الفرعوني، مولانا احتمال يكون عنده وقت وندخّلك له.
قام السيد مينا واقفًا مع نهاية كلماته فوقفت. تحرك فتحركت وراءه. مررنا بجوار المتردوتيل الذي رفع يده بالتحية للسيد مينا ثم هز رأسه لي ببقايا الابتسامة المخصصة للسيد مينا. مررنا سريعًا من بهو الفندق إلى الباب. انفتح الباب وبدت سيارة السيد مينا واقفة. فتح لنفسه الباب المجاور للسائق ودلف سريعًا. لم أجد بُدًّا من أن أجلس وحدي في المقعد الخلفي ففتحت الباب ودخلت. أغلقت الباب وانطلقت السيارة السوداء في شارع الهرم عائدة باتجاه ميدان الجيزة. كان الطريق طويلًا. هو هو نفس الطريق الذي قطعته منذ لحظات. الفارق الوحيد أنني لم أكن بجوار سائق تاكسي وأنني أركب سيارة مكيَّفة مع السيد مينا، وأنني متوجه لرؤية الفرعون. أنا متوجه لرؤية الفرعون. كان الطريق مزدحما بالسيارات وكان السيد مينا صامتًا تمامًا. رنّ جرس تليفون صغير وردّ السيد مينا بصوته الحادّ. كان مقتضبًا ولم أفهم شيئًا من ردوده يمكّنني من معرفة المتصل. هل يمكن أن يكون الفرعون شخصيًّا على الطرف الآخر؟ هل هذا الرجل الجالس أمامي الآن هو هو مستشار الفرعون الذي يقابله كل يوم؟ كل يوم؟ يرى الفرعون وجهًا لوجه ويكلمه ويشير عليه وربما يناقشه ويحاجّه وربما يحجه ويقنعه؟ هل هذا الرجل البسيط الذي لا يرتدي حتى ربطة عنق، هذا الضئيل الحجم هو السيد مينا مستشار الفرعون حقًّا وصدقًا؟ كانت السيارة تنطلق الآن بالقرب من نفق الهرم. الشمس لا تزال عالقة بالسماء وتلقي ببعض ضوئها على الأرض. هبطت السيارة سريعًا في نفق الهرم وكنت أفكّر في أني سأسلم فرعون مصر الحلّ بعد دقائق.

* * *

فتح رزق عينيه فأبصر الجندي الإسرائيلي واقفًا ببندقيته فوق السور فأغمض عينيه ثانية. فتح حور عينيه فأبصر الطبيب الإيطالي واقفًا يلوح بيده لممرضة. جان واقف في نهاية الممر يمسك بسيجارة مطفأة. اقترب منه جان لما لمح حركة رأسه فأغمض حور عينيه ثانية. فتحهما فأبصر الجندي الإسرائيلي يشعل سيجارته ويعيد العلبة إلى جيبه. قلب وجهه فرأى بقيّة الأسرى على أَسِرّتهم في مركز الاعتقال. كان الجندي يبدو في برجه من خلف الزجاج. لم يكُن رزق يشعر بالجوع وإنما بالضياع. قال لنفسه: لا فائدة. سيظل جان يلاحقني وسأظل محتاجًا إليه. كلما هممت بالهرب منه وجدته فوق رأسي ووجدت نفسي مرغَمًا بحاجة إليه. فتح عينيه وابتسم لجان. أومأ جان برأسه وقال بفرنسية واضحة افتقدَتها أذناه: لا تخشَ شيئًا. سيتم نقلك إلى الأراضي الفرنسية فورًا. ستكون تحت حراسة البوليس، لكن لا تقلق، ستتدبر الأمور جيدًا. لقد اتصلت بمحامٍ ويبدو أن قضيتك متماسكة. لا تقلق. هل تشعر بأنك أفضل؟ كان يجب أن تخبرنى بموضوع الحقنة الشهرية. على العموم كل ما ينتهي خيرًا هو أمر حسن. صمت جان ولم يردّ حور. كان منزعجًا بشدة من اكتشافه أن أذنيه كانتا تفتقدان سماع الفرنسية إلى هذا الحد. كانت شفتاه قد تحجرتا. أخذ شربة ماء أخرى ولم يشعر بالرغبة في شرب المزيد. قال الحارس الإسرائيلي بالأمس إنهم سينقلونهم إلى تلّ أبيب. سيتمّ نقلنا جميعًا بالسيارات. سيتم نقلك بالطائرة يا سيد حور، نتمنى أن تكون قد قضيت معنا وقتًا طيبًا. ابتسم الطبيب الإيطالي في فرنسيته غير المفهومة ولوّح بيده مودِّعًا. إلى متى سنظل هنا؟ سأل رزق زميله المستلقي بجواره. نظر إليه ذلك الأخير شزرًا ولم يردّ. كان البوليس الفرنسي واقفًا بالباب. دخل الكابتن فوشيه وانحنى على حور: سيدي، ستبدأ الآن عملية إعادتك إلى باريس. نحن نتمنى أن تتم في أفضل الأحوال لكم ولنا. وأودّ أولًا أن أعرب عن فائق احترامي، أنا وبقية الفريق المكلف بالنقل، لشخصكم وللتراث الذي تجسدونه، إلّا أني مضطر إلى تذكير سيادتكم بأنكم تحت حراستنا وفي عهدتنا، وأن واجبي يحتّم عليَّ إعادتكم إلى الأراضي الفرنسية تحت أي ظروف باعتباركم ـ من الناحية القانونية- ملكية فرنسية. سيبدأ ترحيلكم بعد الظهر. لكم وجبة إفطار ستقدَّم بعد قليل ووجبة الغداء ستأخذونها قبل الرحيل مباشرة. لا داعي للزحام، نحن نعرف أنكم معشر المصريين مولَعون بالزحام، لكل واحد مكانه في أتوبيسات الترحيل. سترحلون إلى مركز التجميع في تل أبيب. ستطبق عليكم قواعد الجيش الإسرائيلي لأسرى الحرب فيما لا يتعارض مع اتفاقية جينيف الخاصة بمعاملة أسرى الحرب. كانوا يدخلون النقالة الممدد عليها حور إلى الطائرة. مراوح الطائرة تدور وهو يستعد للسفر من جديد. رزق يقضم بقيّة لقمة احتفظ بها والأتوبيس يقطع الطريق من العريش إلى تل أبيب. طوال الطريق، كان رزق يرى المعدات والدبابات والمواقع المصرية المدمَّرة. أين ذهب الباقون؟ نظر رزق في الأتوبيس ولم يتعرف على أحد من بقيّة الأسرى. كان الأتوبيس يهتزّ بشدة وهو يقطع صحراء سيناء في طريقه إلى إسرائيل.

* * *

سرّي للغاية
من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في القاهرة
إلى وزارة الخارجية ـ واشنطن

١ ـ قابلت الفرعون اليوم وكان اللقاء غريبًا. لم يخرج للقائي كالمعتاد ولم يسلم عليّ باليد عند دخولي البهو الفرعوني مثلما كانت العادة. ظل جالسًا في عرشه بعيدًا عنّي وكانت ردوده مقتضَبة وبلا حرارة. كان لونه ممتقعًا كالموتى. لم تسفر المقابلة عن أي شيء إذ إن ردوده كانت عامّة وغير محدَّدة.

٢ ـ تعتقد السفارة أنه مريض وربما في مرحلة متقدمة.

٣ ـ نتابع الموقف.

السفيرة

* * *

القاهرة في ٢٦ نوفمبر

صديقى فخر:

أتعرف لماذا أصرّ عليك رغم البعد والمنافي المختلفة الأشكال والأسماء؟ ليس فقط من أجل تاريخ طويل مشترك، بل ـ وأولا ـ لأنك تعبّر عنّي جيدًا عندما أكون غائبًا عن الوعي. ولأني غائب عن الوعي ـ وعيي وعقلانيتي وذهنيتي وصفاء روحي وتركيزي ـ ولأني مغيب عن هذا لصالح اكتئابي ـ المقيم بفعل العادة أكثر من فعل السبب ـ ولافعلي ـ لأن الكمون واللعن أسهل من الحركة والمواجهة ـ تصبح أنت ضروريًّا، لازمًا، وغير قابل للاستبدال.

٩ ديسمبر

لا يا عزيزي، لست عدميًّا ولو كنت كذلك ما تألمت أو بحثت عن حلّ، والمشكلة أنني غير عدميّ يحيا حياة عدمية وهذا خراء طازج.

أشعر داخلي أنني بدأت أستمرئ ما أنا فيه لأنه لا يقتضي مني فعلًا محددًا بل مجرد استمرار وهذا شيء مرعب ومخيف لأنني عندما أستيقظ إلى نفسي أكاد أُجَنّ رعبًا من القادم والمستقبل، وأشعر ببرودة شديدة وباللاشيء فيّ. هل تتذكر أنطوان روكانتان في «الغثيان»؟ أنا مثله ولكنني أعيش في عفن سائل.

١٠ ديسمبر

قال:

بحر لأيلول الجديدِ

وأنت إيقاع الحديدِ

تدقّني سحب على الصحراء

وأقول: فلتمطر

١٧ ديسمبر

لا تكتب لي أي شيء بالفرنسية.

١٨ ديسمبر

ريم على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمي في الأشهر الحُرُمِ

لا أعرف لماذا أتذكر هذا البيت دائمًا؟! ربما لجرسه الموسيقيّ أو لأني لا أعرف معناه بالضبط. والله العظيم أفتقد سعادتكم بشدة رغم غضبي عليكم الذي يذهب الآن فجأة فأشعر تحديدًا بحنين شديد إليك. أريد أن ألقاك في منتصف المسافة بيننا وأن أخرج مني إليك مرة وأن أكافئك على السعادات الكثيرة التي منحَتها لي هذه الصداقة وأن أقول إنني أحبك فلا أشعر بالخجل أو بركاكة الألفاظ وأريد... وأريد...

أنا متيقن أنك سعيد أو على الأقل مرتاح حيث أنت، وهذا مصدر سعادة لي رغم بُعد المسافة.

أريدك أن تخبرني عن الرواية والدراسة والمنزل وشيرين ومريم وأنت.

٢٥ ديسمبر

أحب النوارس التي تلجأ إلى البحر في العاصفة

وأكره الموت الذي ينام على حياتي الواقفة

وأنتظر

٣٠ ديسمبر

أرسلت خطابًا إليك صباح اليوم، ولكني أشعر أحيانًا أنني أتكلم معك، أتحدث إليك، وأنك هنا والآن وكم نحن بعيدان ليس فقط جغرافيا بل تاريخيًّا يا فخر.
هاقد أدركت أخيرًا أن السبل قد تفرقت بنا.
سرت أنت في طريق غير محدد المعالم لكنه طريق، وقفزت أنا كالمظلِّيِّين في المستنقعات أطفو دائمًا وأعيش أحيانًا وأغوص كثيرًا فيها وأنتظر.
٣١ ديسمبر ـ ليلة رأس السنة الجديدة
استيقظت صباح اليوم في الحادية عشرة، وبعد إفطار عادي أعدّته الوالدة المقيمة أسبوعًا معي وكوب من القهوة قررت البقاء في المنزل ـ كنت أخطط للذهاب إلى مكتبة الجامعة الأمريكية للعمل في كتاب جديد، أخطط له منذ شهور ولا أعمل فيه أبدًا ـ بعد ساعة من القراءة والقهوة حان وقت النزول. هناك موعد سابق مع سحر. اتصلت بها ولم تكن موجودة. ذهبت إلى بين السرايات. لم أتسكع منذ كنت أنت هنا في الشتاء الماضي. شربت شيشة جيّدة على مقهى أمام باب كلية التجارة وأنا أنظر إلى الطلبة والسيارات. اتصلت بسحر وأشرت إلى تاكسي وذهبت إليها في بيتها في الثانية. قلنا كلامًا فارغًا عن أشياء كثيرة ووصلنا إلى السرير في الرابعة (موعد بدء ورديتي في الوكالة) بعد أربع زجاجات من البيرة التي أهداها إياها شخص ما قادم من الخارج. ثم قمنا في الثامنة، أكلنا معًا ثم نزلنا وذهبنا معًا إلى المجلة التي تعمل فيها. ظللنا نهلفط في أحاديث عن العفن وعن جدوى مقاومته وعن الحكومة وعن الفراعنة ثم عبرت شارع قصرالعيني إلى تاكسي آخر نحو المنزل في شارع التحرير. العائلة المقدسة كلها اجتمع شملها في منزلي العامر اليوم. صنعت قهوة ثم شايًا ثم قهوة. أمي دَهِشة من كمية الماء التي لدَيَّ في المنزل. زاد تقديرها لشخصي الكريم لما رأتها. منذ ثلاث ساعات وأنا أعمل في الكتاب الوهمي إياه. قرأت فصلًا من الجزء الثالث من خماسية مدن الملح لعبد الرحمن منيف وثلثَي كتاب عن تجارة الرق والعبودية في أمريكا ثم قرأت منذ دقائق خطابًا أرسلتَه إليّ في فبراير الماضي من باريس وكان دافئًا وقويًّا وطويلًا فأشعلت البايب وصنعت قهوة عاشرة وجلست أفكر فيك.
أنا الآن أهدأ، ولا أريد سوى سلام روحيّ.. والسلام.
ناصر

* * *

جلست فاطمة في شرفتها تنظر إلى سفح الجبل الممتد أسفل الشرفة. منذ محاولتها الأخيرة للفرار من هذا الجحيم وهي تحت المراقبة المستديمة. الخادمة السيلانية تجلس داخل الغرفة وعلى باب البيت كلب كبير مطلق السراح. فيمَ كان كل ذلك؟ كانت تشعر بالعار يأكل جسمها كله. صارت تكثر من ارتداء الملابس رغم هذا الحر الخانق ودون أن تستطيع التغلب على إحساسها بالعري. أنا المستباحة. أنا الآكلة بثديها. قالت لويزا في الفيلم بالأمس: لو لم يكن قتل النفس خطيئة لقتلت نفسي قبل أن أكون أَمَة لعربي. كان معها كل الحق لويزا الفارسة الصليبية وقائدة الهوسبتاليين. وأنا لا أستطيع قتل نفسي حتى لو لم يكن خطيئة، وقد صرت أَمَة لا لعربي واحد بل لثلاثة مجتمعين. كانت فاطمة تجلس في الشرفة تحاول التخلص من رؤية نفسها في مرايا غرفتها. تحاول التخلص من إحساسها الدائم بالرجس والرغبة المحمومة في البقاء في الحمّام تحت الدش إلى الأبد. كانت تفيق في الليل في نوبات صراخ محمومة منذ أن أعادوها في الصيف الماضي إلى هذه القلعة الدنسة. بعد الفرار وما لاقت فيه، وبعد الوصول المستحيل إلى باب القنصلية المصرية، جاء الجنود وأخذوني. جاءت الشرطة البدوية وأخذتني ولم يستطع أحد أن يمنعهم وابتلعوا جميعًا رجولتهم في حلوقهم وهم يرونني أُساق إلى سوق النخاسة. وها أنا ذا، أنا الأمة الأصلية، المكتوبة في الكتاب، أنا ملك اليمين، أنا العبدة، أنا الرقيق الأبيض أو الأسود لا يهم، ولكن مَن الذي قبض ثمني؟ جاءت السيارة الجيب وعلا نفيرها ودوّى صداه في فراغ الجبال. حان الآن موعدي. إما الآن وإما لويزا معها حقّ، وإما العودة إلى موتة بولاق الدكرور التي فوتها. نزلت فاطمة إلى السيارة الجيب تصحبها الخادمة السيلانية للذهاب إلى المستشفى لموعد غسل الكلى نصف الشهري. ربط حارس البيت الكلب أولا ثم دلفت السيارة إلى الفناء الداخلي. هبطت فاطمة تتبعها الخادمة السيلانية ودلفتا في السيارة. تحركت السيارة وتقهقرت ثم انطلقت عبر دروب الجبل الهابطة إلى السفح. الصخور مرة أخرى. هذه الصخور وهذا الطريق العقيم. منك لله يا من كنت السبب ـ أيًّا كنت ـ في مجيئي هنا ورؤيتي لهذه الصحراء الجرداء التي لم تكن عينيّ لتتأذى برؤيتها أبدًا لو كانت الأمور غير ما صارت عليه. منك لله أيًّا كنت يا من ظلمتني وأوصلتني إلى هذه النخاسة. منك لله يا بعيد. في الانحناءة القادمة. عند المنحدر القادم. أما سمعت من قبل عن القطة التي تهبش من يقترب من أطفالها؟ أطفالي كلهم ماتوا وزوجي معهم، وكنت أظن أني أنقذ شرفي وحياتي بالمجيء هنا في حضانة هذا الشيخ الطيب الغادر الفاجر. في الانحناءة القادمة تلاقي ربك لتعلم منه إن كان حقًّا أن تشترك معهم في هذا الرجس. أدار السائق وجهه ليرى المنحنى وهو يلف بالسيارة في أعلى الجرف المؤدي إلى السفح. دفعته فاطمة على حين غرة في اتجاه الانحناءة عبر باب الجيب المخلوع. ذهب السائق في صرخته الأخيرة عبر الصخور وأمسكت فاطمة بعجلة القيادة تُتِمّ الالتفاف وهي تنتقل للجلوس محله. أوقفت السيارةَ وشدّت الفرامل ونظرت إلى الخادمة السيلانية المصعوقة من المفاجأة والرعب من قدرة هذه المرأة. نظرت إليها وسألتها في حدّة:

ـ ها؟ تيجي معايا ولّا تروحي معاه؟

بلعت الخادمة ريقها ولم تردّ. أدارت فاطمة مفتاح السيارة وانطلقت بها. لا تختلف كثيرًا عن ميكروباصات بولاق ـ إمبابة. انطلقت فاطمة عبر الطريق الجبلي ولم تكن تعرف إلى أين تتجه.

* * *

كنا نحمل الموتى وندفنهم. بالأمس فقط دفنّا ما يزيد على مئتي جثّة. ندخل البيوت فنجد كل سكانها مكوَّمين بالداخل بلا حراك. أحيانًا نجد جثة أو اثنتين على مقربة من البيت كأنما كانتا تحاولان الفرار من موت باطش طويل الذراع فأمسك بهما في آخر محاولاتهما للهرب. في أحيان أخرى نجد بقايا جثث متحللة أو مهشمة. كنا ندفن كل ذلك بلا تمييز وبلا طقوس في مدافن جماعية نحفرها في وسط المدينة، أو ما كان وسطًا للمدينة. الهدف من اختيار وسط المدينة أنه أقرب بقعة لكل أنحاء المدينة وبذلك نوفّر الوقت والجهد على كل فرق البحث التي تجوب الأحياء حيًّا حيًّا.

كنت قد تعرفت على فرق الصليب الأحمر عن طريق ناصر صديقي ومن يومها وأنا أجوب معهم في مدن الصعيد المهجورة لنتم هذه المهمة. كانت نيّة البعض إنسانية بحتة أو حتى دينية باعتبار أن إكرام الميت دفنه، ولكن اهتمام الصليب الأحمر الأساسي كان صحِّيًّا. لأن ترك الجثث في العراء كان في حد ذاته مصدرًا للأوبئة، وبالفعل فإن عددًا كبيرًا من الوفيات كان بسبب الطاعون والكوليرا وليس بسبب التلوث. كان الطاعون يسير في الصعيد كالنار في الهشيم. كان في الهواء ممزوجًا بالعفن السائل ومتغلغلًا فيه، ولأن المصائب لا تأتي فرادى أبدًا فقد تبين أن التلوث والعفن يوفّران أنسب البيئات الحيوية لنموّ وانتشار الطاعون والكوليرا.

أكثر ما أفزعني وحرمني من النوم هو منظر الجثث الناقصة. في أول مرة رأيتها فيها أُغمِيَ عليّ، وقص عليّ أطباء الصليب الأحمر أن التفسير الوحيد لهذه الظاهرة الغريبة هو أن البعض كان يُضطرّ إلى التقوُّت بلحم الموتى وذلك لنفاد الطعام نهائيًّا من بعض المناطق. وبالإضافة إلى ما يشكله ذلك في حدّ ذاته من انتفاء للآدمية أو لما بقي منها، فإنه لم يكن سوى حلٍّ مؤقت لأنه كان يودي بحياة المتقوت بعدها بأيام قليلة، إذ إن لحم الجثث كان مترعا بشتى أنواع الأوبئة.

كان الصليب الأحمر وعدد آخر من المنظمات التطوعية مثل «أطباء بلا حدود» الفرنسية و«السلام الأخضر» قد حصلوا على تفويض من الأمم المتحدة وبموافقة الفرعون على العمل بحرّية وبلا أي قيد في الصعيد ابتداءً من جنوب بني سويف باعتبارها منطقة كوارث عالمية ومفتوحة لكل من لديه الاستعداد لوضع قدمه فيها. وكانت هذه المنظمات تقوم ببعض الأعمال الجيدة مثل عمليات الدفن ومثل عمليات حرق القرى الخاوية والتي يفوق عدد الموتى فيها من البشر والحيوانات قدرتهم على الدفن في زمن معقول. لكن قدرة هذه المنظمات على الإغاثة كانت ضئيلة أو شبه منعدمة ناهيك عن مقاومة العفن نفسه.

في البداية كانت مقاومة العفن هي الهدف المعلن للعمليات التي يقومون بها، ولكن شيئًا فشيئًا اتضح أن ذلك الهدف مستحيل التحقيق لأسباب أكثر من أن أعدّدها هنا، ومن ثَمَّ بدأت تركز على الإغاثة. لكن حجم المأساة فرض نفسه وأصبحت الحيلولة دون تفاقم الأوبئة هي جل ما تستطيع هذه المنظمات العمل على تحقيقه. وحتى ذلك الهدف لم يكن مضمون التحقيق. لكني شاركت في بعض جهود الإغاثة الجارية. كانت هذه الجهود تتمّ بالصدفة تقريبًا. ندخل مدينة، وفي أثناء جمع الجثث نكتشف بعض جيوب الحياة التي ما زالت تقاوم. بعض الأسر أو بعض أعضاء الأسر. عددهم لم يتجاوز في أي مدينة دخلتها عدد أصابع اليدين، وعلى الفور تبدأ محاولات الإنقاذ: من الإطعام إلى غسيل الكُلَى إلى تنظيف الرئتين إلى معالجة الجلد... إلخ إلخ. ثم يتم نقلهم فورًا بالطائرات إلى المعمل العائم جنوب البحر الأحمر. كانت نسبة النجاح لا تتجاوز عشرة بالمئة ممّن يتم العثور عليهم أحياء أو شبه أحياء، ولكن هذه النسبة كانت تشكل كنزًا لا يقدر بالنسبة إلى البحوث الدولية الجارية حول البيئة وكوارثها. كانت هناك المعلومات البيولوجية المستقاة من

التحاليل والفحوص، وكانت هناك ـ ما يهمني أنا أكثر ـ القصص التي يرويها الناجون عما حدث. وتوضح هذه القصص كل تاريخ العفن في مصر ومحاولات مقاومته.
لقد جمعت أكثر من خمسمائة شهادة، مسجَّلة بالصوت وبالصورة، من أناس لم يبقَ منهم واحد على قيد الحياة اليوم، إذ لا تبلغ فرصة حياة الناجين (العشرة بالمئة) أكثر من عام واحد على أحسن تقدير، وسوف أنشر يومًا ما كل هذه الشهادات لتكون شهادة من قلب الموت على ما حدث.
من ضمن هذه الشهادات قصص عن مراكز التنظيف التي أقامها رجال الفرعون قبل التخلِّي نهائيًّا عن الصعيد. كان الناس يقفون طوابير أمام مراكز غسل الكُلَى بالأسابيع، وروى لي رجل في الأربعين أن زوجته وطفليه ماتوا في الطابور قبل الوصول إلى ماكينة الغسيل. وروى لي آخرون عن ظهور جماعة كانت تدّعي القيام بالغسيل في المنازل. ثم يختفون بالمريض كُلِّية، ويقال إنهم كانوا يقطعونه ويبيعونه أجزاء في القاهرة: الكُلَى وحدها والرئتان وحدهما وأحيانًا قطع أخرى حسب الطلب، وقد أكد عديدون هذه الرواية من بينهم شخص وقع ضحية لإحدى هذه المجموعات إلّا أنه فر منهم في الطريق قرب بني سويف وعاد سيرًا على الأقدام (ليلقى حتفه كُلِّية في أثناء محاولات إنقاذه)، وأخبرني أحد الناجين ـ وهو في الأصل طبيب ـ أن هذه المجموعات كانت تفضل خطف الأطفال لأن نسبة التلوُّث بأعضائهم كانت أقل من تلك الموجودة بأجساد الكبار.
ثم هناك قصة الشيخ عبد الرحمن؛ والشيخ عبد الرحمن هو رجل في الستين من عمره كان يعيش في أسيوط من قبل أيام العفن وكانت صحته مضرب الأمثال في قوتها. طالته الأوبئة مثلما طالت الناس جميعًا فذهب إلى أحد مراكز التنظيف ووصل فعلًا إلى ماكينة الغسيل. إلّا أن الموظف على الماكينة الذي وضعه عليها نسيه تمامًا وعاد إلى بيته بعد أن أغلق المركز بالضبة والمفتاح. كان ذلك يوم خميس وكان السبت إجازة عيد العمال، وبذلك ظل الشيخ عبد الرحمن ثلاثة أيام متتالية على ماكينة الغسيل. فلما عاد الموظف وفتح المركز وجده قد تحوّل إلى نظافة محضة وتوقف عن أن يكون إنسانًا عاديًّا. خرج من المركز سائرًا دون أن تلمس قدماه الأرض (تلك هي الرواية مثلما سمعتها في معظم مدن الصعيد)، سار وصار الناس يلمسونه فتنظف كُلاهم دون غسيل، وسرعان ما ذاع أمره كبَركة وصار الموبوءون يأتونه من كل حدب وصوب ليلمسوا هذه النظافة المحضة المتجسدة فيذهب عنهم التلوث. حتى سمع رجال الفرعون فالفرعون بأمره فأمر به فاقتيد إلى قصره. فلما لمسه الفرعون خبا.
كنت أعود بكل هذه القصص إلى القاهرة وأنشر ما أستطيع نشره في الصحف والمجلات، لكنني ـ والحق يقال ـ كنت كلما أعود إلى الصعيد أجد الحال أسوأ مما تركته. أربع وتسعون مدينة دخلتها مع فرق الصليب الأحمر، وثلاث مئة وتسع وثمانون قرية رأيت إحراقها بعينَيَّ، وعزب ونجوع لا تُعَدّ ولا تُحصَى رأيتهم يشعلون النار في بقاياها ونحن نمر في الطريق من مدينة إلى أخرى، حتى دون أن نتوقف، دون أن ندخلها أو نعرف اسمها. كأننا ملائكة الموت، ثم تريدني أن أعيش كالأخريات؟ تريدني أن أعود إلى جحر في شارع في القاهرة لأحيا في خندقي الصغير الأعمى وأتظاهر بأن شيئًا لم يكن وبأنني لم أرَ شيئًا ولم أسمع شيئًا ولم أعرف شيئًا؟ أم تريدني مثل ناصر أجلس في شقتي المُحكَمة الإغلاق ـ لا أحد يعرف إلى متى ـ وأتحدث عن عبث المحاولة؟ أي قانون ذلك الذي يصمد أمام ما رأته عيناي؟ أي منطق وأي معايير؟
هنا كل شيء مختلف ولا تستطيع أن تتكلم عن هنا لأنك هناك ولست هنا. هنا هو هنا وليس أي مكان آخر. أنا هنا في قلب العفن أكتب إليكم عما يجري في هذه اللحظة عينها، أشمّه وأشعر به وأراه وألمسه بيدي سائلًا في الهواء وعلى الأرض. أنا التي حملَت يداها الجثث والأعضاء المفتتة

وألقت بها في الحفر الجهنمية التي لا اسمَ عليها ولا عنوان. أنا التي رأت الإنسان في أسوأ حالات انحطاطه إلى ما دون الحيوانات، إلى الحشرات والديدان. أنا لا أستطيع أن أعود مثلما كنت قبلها ولا أستطيع أن أغفر لمن لا يهبّ الآن فورا ويقف في وجه القصر الفرعوني وحاشية الفرعون، وكل من يرفع له يده بالتحية وللفرعون نفسه لا أحد سواه. لا أقلّ من ذلك. كان الأتوبيس قد وصل إلى بني سويف. توقف واقترب رجال الحرس للتفتيش. دقائق ثم استأنف رحلته صوب القاهرة.

* * *

كان المترو ينهب الأرض من حلوان إلى المرج. أنظر إلى جانبَي الطريق من النافذة. ألصق وجهي في النافذة. لم يعد هناك ما يمكن عمله. ليس بيدي شيء. رجل طويل القامة يطرقع على زجاجات المياه الغازية ويبيع الشاي في المترو. من أين يأتي هذا الماء وكيف هي حالته؟ أماء حقيقيّ أم ماء مصطنع؟ مر بائع الشاي والمشروبات الغازية أمامي. نظر إليّ بعينيه الساذجتين الخبيثتين. كان يختبرني، هل أنا زبون محتمل. لا، لست زبونًا. مر بائع الشاي وتجاهلني. أنا غير موجود بالنسبة إليه. أنا لا أُعَدّ لأني لا أشرب من شايه ولا أملأ محفظته. أنا مقعد خاوٍ أو لا شيء مطلقًا. أنا الباحث الأول في مصر، أنا حامل الحلّ السحري الذي لا يسمعه أحد ولا يريد أن يفهمه أحد. أنا هنا على هذا المقعد وبائع الشاي ينظر من خلالي. كان ينظر إليّ ولا يراني. حين رأيته أول ما دخلت البهو الفرعوني فهمت. كان عريض المنكبين مثل بائع الشاي هذا، وكان شمعيَّ الوجه شديد البياض. حرك رأسه في اتجاهي ببطء. كانت عيناه تنظران إليّ ولا ترياننى كأنهما عينان من زجاج. كان بعيدًا، بعيدًا جدًّا وكأنه في مكان آخر. انحنيت واقتربت منه للسلام عليه لكنه وقفني بحركة من يده. المترو يدخل في النفق. الظلام ثم الظلام مرة أخرى. الرجل الجالس قبالتي أعطى الكوب لبائع الشاي وقال:

ـ متشكرين يا عبد العال، ابقى قلّل السكر شوية.

بائع الشاي حمل الكوب وانصرف إلى آخر العربة. في المحطة القادمة سينزل وسيركب العربة الأخرى. عندما تكلّم الفرعون أنصتُّ. كان صوته مجوفًا ورنانًا. كان يتكلم ببطء ورتابة كأنه يتكلم في التلفزيون. قال لي: هات ما عندك. قلت إني كنت أودّ لو توفرت لي صالة عرض وكمبيوتر وأجهزة معيَّنة تمكنني من عرض كل شيء بالصور والبيانات والإحصاءات، وتوضيح المسارات التي يمكن أن تتخذها الأوضاع وفقًا لكل سيناريو والتعديلات التي يمكن إدخالها في كل سيناريو والنقط المفصلية التي عندها يُحدِث أي تعديل تحولات كبرى تكتسب قوة دفع خاصّة بها فتوفر علينا الكثير من المجهود. رد أن لا وقت للأجهزة فقل لي باختصار ما فكرتك. تكلمت وقلت له الفكرة الأساسية. تحدثت عن العفن والتلوث وعن تشخيصاته المحتملة ثم دخلت في سيناريوهات الحل. المترو يتوقف في محطة الملك الصالح. هُرعت خارجًا فارتطمت بعبد العال وهو عائد إلى العربة:

ـ حاسب يا أستاذ.

قال لي دون أن ينظر إليَّ وهو يدخل إلى العربة. خرجت من المحطة مسرعًا. أشرت إلى تاكسي:

ـ أول الهرم؟

وقف وركبت. كان رباط عنقي يخنقني. مددت يدي وفككته. البدلة البنية تزيد حرارة هذا الصيف الحارِّ أصلًا. تقدمت في مقعدي وخلعتها. وددت لو ألقيها من الشباك. لكنني لا أستطيع. ظللت أحكي للفرعون وهو صامت لا ينبس ببنت شفة. ظللت أتكلم كثيرًا. قلت كل ما عندي. حتى قصص الدكتور بدير والشركة قلتها. كان صامتًا، وكان صمته مريحًا إذ جعلني أنسى للحظةٍ هيبة وجودي في حضرة الفرعون. كنت أغمض عينَيَّ وأتكلم وكنت واثقًا أنه لا يراني من عرشه البعيد في آخر البهو هناك حيث يجلس، وكنت أسترسل في الحديث وكأني أحكي لنفسي. كنت أتلو القصة التي تلوتها عشرين ألف مرة وصرت أحفظها عن ظهر قلب. تركني الفرعون أنهي حديثي. أنهيته. التاكسي يعبر كوبري عباس ويدخل إلى ميدان الجيزة. يمرّ للمرة المليون بجوار مبنى الشركة على الكورنيش ثم بجوار السنترال الذي لا يعمل أبدًا، ثم قال الفرعون كلمة واحدة:

ـ شكرًا.
ثم انفتح الباب ورأيت السيد مينا واقفًا ينتظر. فخرجت، وانغلق الباب. حاولت الحديث مع السيد مينا لكنه كان صامتًا أو راغبًا في الصمت ومقتضبًا في ردوده. هممت بإعطائه نسخة من البحث إلّا أنه ردّها بأدب مؤكدًا على أن لديه نسخة بالفعل. سألته عما سيحدث بعد ذلك فأجاب مستنكرًا السؤال بأن الموضوع الآن في يد الفرعون نفسه، فلم أجد ما أقوله فأضفت أنه على العموم أنا موجود في عنواني لو احتاجوا إليّ. فنظر إلى السيد مينا وقال:
ـ عندما نحتاجك سنعرف كيف نجدك.
خرج معي إلى الباب الخارجي للقصر ثم سلّم عليّ بسرعة. جاءت سيارته وفتح السائق لي الباب الخلفي فركبت وحملني خارج القصر وخارج المنطقة كلها. السائق يزفر في ضيق في إشارة ميدان الجيزة الأبدية. السيارات واقفة والجوّ حارّ. فتح السائق الراديو فجاء صوت عبد الوهاب. انفتحت الإشارة. كانت الساعة تقارب الثالثة. هذا هو موعد عودتي من العمل أيام العمل. كان التاكسي ينحدر هابطًا بسرعة نفق الهرم، وكانت الشمس ساطعة، وكنت أدرك أنه لم يكن بوسعي فعل أي شيء.

* * *

القاهرة في ١٧ نوفمبر

فخر الدين:

أمس نِمْت عشر ساعات بعد يومين من السهر والاستيقاظ المبكّر. وفي الساعات العشر رأيتك مرة. كنا في مبنًى عالٍ بلا حوائط وفي دور مرتفع ثم وقع زلزال هزّ الأشياء كلها بشدة. بعدها وجدت نفسي وحيدًا في المنصورة أتفقد أثر الزلزال على المنازل وأنا غاضب وحزين لأن واجهات منازل سقطت أو بلكونات... إلخ.

أنت تسأل في خطابك عن الزلزال، وكل البني آدمين هنا لا عمل لهم سوى الحديث عن الزلزال. مرعوبون وخائفون أو يُفْتُون في طبيعة القشرة الأرضية ثم ينقلون تصريحات لم يقُلها مسئولون ألمان ويابانيون وإنجليز وفي بلاد الغال عن زلزال وشيك قوّته ٨ ريختر ـ الأخير كان ٦ ـ بل أبلغتني سيدة فاضلة أن هناك بركانًا سيثور في الفيوم. أنا غير خائف ومرّ بي الزلزال الأول في المنزل والثاني ـ كان ٥ ريختر ـ في الوكالة. شعرت في الاثنين بالعجز الشامل ولكني في العادة أنسى بعدها. ما يزعجنى بشدة أني منذ ذلك الوقت أحلم بالزلازل كثيرًا وفي معظم هذه الأحلام أقوم من النوم في منتصف الليل وأنا غير متيقن هل حدث زلزال فعلا أم لا!

٢٥ نوفمبر

هل الوطنية أن أتعفن على مهل بين ملفات غبية؟

٣٠ نوفمبر

الآن أشعر بوحدة قوية وبقوة الوحدة وبشجن عبيط. سحَر ـ المرأة التي كانت عابرة وصارت مستديمة ـ لم تعد بعد من إحدى رحلاتها الصحفية خارج القاهرة. توقفت عن العمل في الكتاب الوهميّ نهائيًّا. أفكر في أن أبدأ في كتاب آخر عن الآثار التي تنهار يوميًّا في الصعيد من أثر العفن. سحر لديها بعض الصور وكثير من الشهادات والوثائق. حنين إليك وإلى عالم لن يأتي سأكون فيه عاطفيًّا وهادئًا. أدخّن البايب وفيلم الناصر صلاح الدين في التلفزيون وأكتب لك. ألا ترى أني ما زلت مثل روبنز أفعل مئة شيء في وقت واحد؟

٣١ ديسمبر، ليلة رأس السنة الجديدة

تلوت بضعة أسطر من محمود درويش لنفسي ولسحر الممددة بجواري في السرير، ثم تصبح على خير، ثم بدأت سحر تتقلب في السرير لأقوم أنا وأجلس إلى مكتبي حافي القدمين بملابسي الداخلية أكتب ما لست أعرف ـ بعد ٣ زجاجات بيرة ـ إلى من لا أعرف.

كنت أريد خطابي هذا أن يكون ما لم يكن من قبل. عاطفيًّا ورقيقًا ومحبًّا وإنسانيًّا خصوصًا بعد خطابي الشتائمي السابق، ولكني أفتقد قليلًا روح الدعابة اللازمة، وما زال خطابك الأبله يثير فيّ حزنًا أشدّ بلاهة وأتساءل هل تعرفني حقًّا؟ هل عرفتني من قبل؟ هل تعاطفت معي منذ خروجك من الوطن؟ ـ أي وطن!؟ ـ طيب بلاش دي.. هل أعرفك أنا؟ هل أحببتك أنا؟ هل صادقتك وصدقتك؟ وأبتلع الأسئلة لأنها عبيطة ثم أنسى انتظار أجوبة لا تجيء وأواصل سكري مرتفعًا مع شياطين حمقى إذ إني لا أحب الملائكة المنضبطة وخصوصًا مع تقلب سحر المستمر في السرير.

ألا أحدثك عن الزلزال؟ وأنا في غرفة مكتبي في منزلي بالدور العاشر مستيقظًا ما زالت آثار النوم بعيني وبيجامتي المطحونة تقلبًا في السرير ثم تهتز الأرض تحتي وتصدر عن الأشياء قرقعة، وأوقن أن منزلنا البائد بناه مقاول لصّ، وأنه ينهار، وأنه لا وقت هناك، وأني أموت، وأن فخر وأن سحر ـ نعم سحر التي اختفت كُلّية لمدة شهر ـ وأن الأوهام وأن الأحلام وأني، لست

بعد.. لست بعد. فأقفز إلى الباب أفتحه وأنزل السلالم (حافيًا بالبيجاما بلا مفاتيح ولا نقود ولا شيء إلّاي)، ألم أحدثك عن كابوس المنصورة عندما رأيت مَلَك الموت - وكان حقًّا وصدقًا - يدخل غرفتي وينام على جسدي فأشعر جفافًا في حلقي وسقوطًا لا إراديًّا في بئر. استمر الكابوس ٣٠ ثانية وجثم على صدري أسبوعًا بكامله ثم تلاشى كما تلاشى الزلزال وكما تتلاشى أنت في الحياة وتحتلّ الذاكرة.
وأنام الآن لأكمل غدًا.
هل تنتظر الأشجار قدوم الظل أم تفرش روحها على الأرض قبل أن تموت؟
لم أستطع أن أنام من شدة السُّكْر.
بعدما قفزت إلى باب الشقة إثر اهتزاز الحوائط والأرضية كانت جارتي بالدور الأعلى تقفز على السلالم حافية مهوشة الشعر - هل كانت نائمة مع زوجها؟ ربما؛ لأنها كانت تصرخ فيه أن ينزل مسرعًا - نزلت حافيًا وبطيئًا وأدركت من فتحات السلم المطلة على الدقي أن المقاول الذي بنى العمارة بريء وغير مسئول عن هجوم الموت علينا - يبدو أنك لم تجرب الشعور بالموت قط، لقد خبرته حتى الآن مرتين إذا أخذنا كابوس المنصورة في الحسبان - عندما وصلت إلى الدور الثاني كان الاهتزاز قد توقف وأنا أيضًا مستند إلى حافة الفتحة المطلّة على خلف العمارة جافّ الحلق والفم، وبطيئًا صعدت إلى الشقة المفتوحة الباب - لم يكن معي مفتاح أو قرش صاغ واحد - عندما أغلقت الباب خلفي شعرت أني حيّ، حيّ، وإن كانت ساقاي ترتعشان.
الثانية عشرة بالضبط:
إذا جاءك الموت هذا العام فتأكد من أنه سيتجنبك في العام القادم.
ناصر

* * *

كان حور يتمشى في شوارع باريس. منذ أطلق المدّعي العامّ سراحه بضمان محل إقامته وبضمان جان له وهو مطلق السراح على أن لا يغادر باريس وأن يبلغ كل يومين نقطة البوليس التابع لها بوجوده. كان يتمشى في شوارع باريس ويفكر فيما يمكنه عمله. بالأمس حاول الاتصال بالفرعون، ولكن كل محاولاته لم تصل إلى شيء. غاية ما نجح في عمله هو الحديث إلى موظف في قصر الفرعون. أهكذا يا سيدي ووليّ نعمتي! هان عليك كاتبك حتى رفضت مدّ يد العون إليه لتساعده على العودة إلى دياره؟ ذهبت اليوم إلى سفير الفرعون وقابلته. هل أقول ليتني ما قابلته؟ لا، على العكس. الآن فهمت. لكن مرارة في حلقي تمنعني من الكلام ومن الكتابة. أنا الكاتب المصري عاجز عما قريب عن الكتابة. أنا عاجز عن الكتابة إليكم بلغة تفهمونها، وعاجز عن الكتابة إليكم لأن مرارةً في حلقي تغصّني وتقمعني. سار حور في بوليفار سان جيرمان، ثم خرج إلى ضفاف السين القبيح اللون والمنظر. كانت السماء تمطر منذ العصر. سار وعبر جسورًا ومر بجوار اللوفر إلى ميدان كونكورد ووقف عند المسلة القديمة. وقف حور وحيدًا تحت المطر تحت المسلة ينظر إليها. غدًا يضعونني بجوارها، أو ربما على الناحية الأخرى؛ عند فندق الكريون ليزيدوا جلاله بهذ القطعة التاريخية. ها أنا ذا أمام الحقيقة الحقيقية: أنا قطعة أثرية أو بالأكثر قطعة من التاريخ. لا مكان لي هنا إلّا هكذا، ولا مكان لي هناك.

أعطى حور ظهره لفندق الكريون وسار بلا وجهة محددة.

* * *

القاهرة في ٢٨ ديسمبر

عزيزي فخر الدين:

المشكلة الآن واضحة كالجحيم، وسحر والدنيا تضعني أمام لُبِّ المشكلة وجهًا لوجه. مرة أخرى ـ كم تكرر هذا المشهد ـ يتعيَّن عليّ أن أختار وأن أفعل، وأنا لا أستطيع الفعل لأني غير متأكد من شيء ولأني لا رغبة لي في عمل شيء لأني أجد كل الأشياء سواء وبلا معنًى. هذا الكلام قاسٍ، ولكني مضطر إليه بحكم المأزق التاريخي الذي أجد فيه نفسي لا بحكم التأمل العقلي أو الوجداني.

ما الموضوع؟

سحر عيسى الصحفية المناضلة التي جعلت من مناهضة العفن محور حياتها ـ لتهرب من مواجهتها؟ ـ والتي كانت رفيقة فراش ممتعة ثم صديقة ثم رفيقة كاملة أو شبه زوجة ـ فجرت المشكلة:

ـ لماذا لا تترك هذه الوكالة المنحطّة ونعمل معًا؟

ـ ولماذا أتركها؟

ـ لأنها منحطّة والعفن يأكل جدرانها وسيأتي عليها يوم وتنهار مثل مجمع التحرير.

ـ على الله ألا تنهار في أثناء ورديتي.

ـ أنا مش باهزر، أنا باتكلم بجد. أنا باحترم فيك عقلك وترفُّعك وكل حاجة، لكن إزاي تسمح لنفسك تشوف كل ما يحدث حولك وماتتحركش؟

ـ أنا بالضبط مباتحركش لأني شايف اللي بيحصل حولي.

ـ إيه رأيك نبطل نلعب بالألفاظ وندخل في الموضوع؟

ـ اتفضلي.

ـ هل انت مع أم ضد العفن؟

ـ ضده.

ـ هل انت شايف إن الفرعون وحكومته يحاولون فعلًا مقاومة العفن أو يستطيعون مقاومته؟

ـ بالطبع لا.

ـ هل انت شايف إن فيه حد غيرنا، احنا المتعلمين أو المثقفين أو سمّينا زي ما انت عايز، يقدر يوعّي الشعب أو يقوم بأي دور لمواجهة هذا العفن.

ـ لا.

ـ إذن فسّر لي موقفك السلبي وعدم قيامك بأي دور!

ـ أولًا: حتى إذا لم يكن هناك أحد غيرنا ـ لا أعرف من نحن بالضبط ـ يستطيع مقاومة العفن فهذا لا يعني بالضرورة أننا نستطيع. نحن يا حبيبتي جزء من هذا العفن وهو قد تغلغل داخلنا. هل تعتقدين أن هذه الأقنعة تحول بيننا وبين التلوث؟ نحن جميعًا ملوَّثون حتى النخاع. نتكلم تلوثًا ونتنفس تلوثًا ونموت من التلوث. نحن ككل الآخرين فراعين.

ـ إذن لا فائدة؟

ـ نعم، لا فائدة. مهما تعملي، تحقيقاتك الصحفية، وأسئلتك المزعجة لبدير البنهاوي، والصور والفضائح التي تفجرينها كل يوم على صفحات الجرائد والمجلات المعارضة لن تحرك بوصة عفن واحدة عن جدار أي مبنى. الشعب الذي تتحدثين عنه ـ حتى والعفن والتلوث يطيح بالآلاف

منه يوميًّا ـ منخرط في هذا التلوث ومسئول عنه. نحن جميعًا كمدمني الهيروين سواء كنا بنشمه.. بنوزعه.. أو بنستورده.
ـ طيب ماتهاجر!
ـ ومَن قال لك إن الهجرة حلّ؟ أينما ذهبت سأعامَل باعتباري مدمن هيروين، أو على الأقل باعتباري مشتبَهًا في إدمانه. سأعامَل ككلب سكك يجب التصرف معي بهدوء لكي لا أعض أحدًا، وببعض الرحمة لأني في النهاية مسكين وكائن حيّ أستحق الشفقة، ثم يأتي مَن يقترح ضربي بالنار لأني أعطل الطريق وأخيف الأطفال، ويأتي المدافعون عني (الذين يدافعون عن بقايا إنسانيتهم لا عني أنا) ليقولوا إنه صحيح أني أخيف الأطفال ولكن ذلك لأني مريض ويجب علاجي: يجب تطهيري من التلوث ومن العفن. لكنهم جميعًا في المستشفيات والمعامل يعرفون أن العفن أصبح جزءًا مني، وأن استئصاله يعني موتي أنا. والحل؟ بالكتير سأصبح كلب حراسة في بيت كبير أو في البوليس أو في جامعة أو شركة. لكني لا أصبح أبدًا إنسانًا مثلهم.
ـ دي لعنة التلوث إذن؟!
ـ لا يا سحر، دي لعنة الفراعنة.
وتنتهي المناقشة مع سحر لترحل غاضبة. تختفي شهرًا أو بعض شهر في تحقيقاتها بطول مصر وعرضها ثم تعود ثانية. لكنني في كل مرة أراها منذ ذلك وأنا أنفجر في داخلي. ليس لأني أشكّ في صدق كلامي، بالعكس، لأني أوقن من حقيقيته، ولكني لا أستطيع تحمُّل ذلك أيضًا، ويصيبني دوار كلما رأيتها تحمل تحقيقًا أو صورة لمقال لها.
تنتابني رغبة قوية في أن أختفي. ليس في الانتحار لأني أحب الحياة مثل محمود درويش ما استطعت إليها سبيلًا، ولكن رغبة في أن أختفي. في أن لا أكون قد وُلدت أساسًا أو وُجدت. في أن لا يكون لي اسم أو ذِكر أو أكون قد رأيت ما رأيت أو سمعت أو فهمت.
القاهرة في ٣١ ديسمبر ـ ليلة رأس السنة الجديدة
يقول محمود درويش وأنا ـ من قلبي ـ معه:
يا ليتني حجر
يا ليت الفتى حجر
ناصر

* * *

سرّي للغاية
من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في القاهرة
إلى وزارة الخارجية ـ واشنطن
هناك شيء غير عادي يحدث في مصر. كل شيء تحت السيطرة ظاهريًّا. ولكن كل شيء يخرج عن أي سيطرة في الواقع. على الرغم من اتصالاتي المكثفة مع المسئولين ومع السفراء الأجانب هنا، فإننا جميعًا عاجزون عن تقدير الموقف.
توجيهاتكم.
السفيرة

* * *

لا أطيق البقاء في القاهرة لأنني أفكر دائمًا في الموت الذي يضرب في مدن الصعيد. لا أطيق البقاء في المجلة لأنني أرى الصحافة تحولت لديهم إلى مهنة، إلى مصدر رزق، وصرت أنا الواهمة، أنا المثالية أو المشاغبة حسب الموقف والظروف، أو حتى أنا المنحلة أو التي لم تجد رجلًا يملؤها ويملأ حياتها فجعلَت من العفن قضيتها.

صارت سحر عيسى هي المشكلة في المجلة لا تحوُّلهم إلى أكل العيش ومقتضياته من الموازنات والحسابات والمهادنة والملادنة. ما العمل حين تجد نفسك في وسط يسوده السفهاء؟ تصبح سفيهًا مثلهم أو تسبّ لهم الدين وترحل، فأرحل إلى الصعيد، فيخزق عينَيّ ما تراه عيناي وتنسحق إنسانيتي فأعود إلى القاهرة لأكتب عنه فأجد نفس الحقارة فأرحل إلى الصعيد إلى القاهرة إلى الصعيد حتى أنسى ـ مثل الآن ـ أي الاتجاهات يأخذ هذا الأتوبيس!

إلى أين أنا متجهة الآن؟ إلى الصعيد أم إلى القاهرة؟ سواء.. سواء.

* * *

القاهرة في ٣١ ديسمبر ـ ليلة رأس السنة الجديدة
عزيزي جدًّا فخر الدين:
سحر رحلت إلى الأبد.
وأنا الآن وحيد. لا أشتاق إليها، وإن كنت أشتاق إلى حالتي أيامها. أنا الآن أدخن البايب.
١ يناير
أرأيت الذي يحدث؟
أين ذهبت أنت؟ ثم أين ذهبت خطاباتك من بعدك؟ هل الدراسة ضاغطة إلى هذا الحد، أم ليس لديك ما تقوله لي؟
ليس عندي ما أضيفه هذا العام وأنا أتأرجح حول نفسي في هذا الانتقال الدائم من المخادعة إلى الرخاوة إلى الاستناد على آخَر يحتويك وينقذك من كل هذا العفن ويأخذك في سفر لا ينتهي إلى مفازات ـ متاهات الوحدة... إلى الوحدة... إلى الوحدة.
ليس عندي ما أضيفه هذا العام. سأكتب إليك في العام القادم.. ربما.
ناصر الخضري

* * *

حمل الشابّ الفرنسي الأنيق حقائب الدكتور هاشم محيي الدين إلى الجناح المخصَّص له. أمامه ليلتان يقضيهما في باريس ليس أكثر. بعدهما يسافر إلى ألمانيا وهناك سيعرف على وجه اليقين ما إذا كان التصويت سيمنحه فرصته الأخيرة أم سيعيده مرة أخرى إلى الدائرة الفرعونية التي لا تنتهي. سار في ممرات فندق الكريون باتجاه جناحه. هذا الجناح هو مكانه المفضل في الفندق وفي باريس كلها منذ صار وزيرًا وصار ينزل في الكريون. فتح الشاب باب الغرفة ودلف الدكتور مباشرة إلى الحمام بحثًا عن دش دافئ. يومان ونصف اليوم وسأعرف النتيجة، إما سأكون أول سكرتير عامٍّ مصري لليونسكو أو أعود أدراجي إلى أقدام الفرعون. رنّ جرس التليفون. كان السفير على الخطّ. رحّب بوصول الدكتور واعتذر عن غيابه عن الاستقبال في المطار. سأراك في الغد. قال الدكتور هاشم ووضع السماعة. فتح باب الشرفة ونظر إلى المسلة المصرية في الكونكورد. كان المطر مستمرًّا منذ وصوله. رنّ التليفون وقلبه معه. ردّ. مدير العلاقات العامة بالفندق يرحّب بوصوله. أغلق النافذة ووقف من خلفها يرقب المسلّة والمطر. لا أحد في الميدان سوى رجل وحيد يقف أسفل المسلة وينظر إليها. رنّ التليفون: موظف الاستقبال يخبره أن التذاكر التي ستقلّه إلى «بون» بعد يومين قد وصلت. ترك الرجل المسلّة وسار مبتعدًا عبر الميدان. رنّ التليفون: مندوب لجنة التصويت يرحب بوصوله ويحيطه علمًا بموقف الدول الأعضاء الحالي. الميدان فارغ الآن إلّا من المسلة والمطر والأسفلت. رنّ التليفون. مندوب اليونسكو يرحب به. نظر الدكتور إلى المسلة. لديه مقابلات ستأخذ وقته كله خلال اليومين القادمين. سيذهب إلى مقر اليونسكو ليلتقي بالمسئولين فيها، وسيلتقى بمسئولين من «الإليزيه» ومن «ماتينيون». ثم سفراء الدول الأربع الأخرى الأعضاء بمجلس الأمن، ثم سفراء المجموعة الأوربية. ثم أسافر إلى ألمانيا لأُجرِي بعض المقابلات، وبعد يومين أنتظر وحدي في غرفة كهذه نتيجة التصويت، ثم أحدّث الفرعون وأخبره بالنتيجة. نظر إلى المسلّة. إذا نجحت سأصبح في باريس مسلةً أخرى كهذه. كان المطر ينقر على زجاج النافذة ويحجب المسلة شيئًا فشيئًا. أغلق الدكتور هاشم الستارة. دخل في الفراش وأغمض عينيه. في الحلم: كان يركب طائرة خاصّة عليها علم الأمم المتحدة وكانت تطير به في أرجاء الأرض السبعة.

* * *